خالد عصام

تقاطعات

رواية

خالد عصام

تقاطعات

دار الشروق

«ثمة سرد جذَّاب وحركة خارجية وداخلية، وثمة ما هو حقيقى أيضًا. لا شيء مُفتعَل أو مُصطنع، والكتابة من لحم الحياة وسخونة الواقع، وبها مشاهد رائقة وساحرة، وهي مُبشرة بكاتب جيد. كما أنه نص يكشف عن تطورات سياسية واجتماعية كثيرة من دون الإشارة إليها بشكل مباشر، بل من خلال تطور الشخصية/ الشخصيات».

من حيثيات وصول الرواية
للقائمة القصيرة بجائزة خيري شلبي

قبل وفاة أبيه بأيام يكتشف يحيى هاشم المأمون عالمًا كان محجوبًا عنه. فبعد علاقة مبتورة امتدت لسنوات، أتت حكايات عن البيت والعائلة والأسْر لتستعيد أشخاصًا وأزمنة، وترسم بهم خرائط للذات وللعالم، ولتتقاطع مع كل تفاصيل حياته؛ ليقفَ حائرًا عند قبر أبيه مُتسائلًا: كيف يمكن صياغة أوراق العمر المهدرة؟

خالد عصام؛ كاتبٌ ومهندس من الإسكندرية، مواليد ١٩٩٤، نشر عددًا من القصص القصيرة في دوريات مطبوعة ورقمية. تُعد «تقاطُعات» روايته الأولى، والتي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة خيري شلبي للعمل الروائي الأول، وحصلت على توصية بالنشر من لجنة التحكيم.

9 789770 938898

دار الشروق
www.shorouk.com

تقاطعات

تقاطعات

خالد عصام

الطبعة الأولى ٢٠٢٤

تصنيف الكتاب: أدب /رواية
الغلاف: إسلام أحمد

رقـم الإيداع ٢٣٦٢/ ٢٠٢٤
ISBN 978-977-09-3889-8

© دار الشروق

٧ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر

/dar.elshorouk /Darelshorouk

عصام، خالد
تقاطعات/ خالد عصام
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٢٤
١٤٤ ص، ١٤سم
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٨٨٩٨
رقم الإيداع ٢٣٦٢/ ٢٠٢٤
١ – القصص العربية أ. العنوان ٨١٣

خالد عصام

تقاطعات

دار الشروق

إلى ذِكرى أبي

المحتويات

الفصل الأول: موت الغريب ١١
الفصل الثاني: هذا البيت بناه أبي ٢٢
الفصل الثالث: علاقات مبتورة ٣٥
الفصل الرابع: تفريغ ٥٢
الفصل الخامس: مرايا الذاكرة ٦٥
الفصل السادس: حنينٌ من نوعٍ آخر ١٣٧

«إن موتانا ليسوا بموتى بالنسبة لنا،
ليس قبل أن ننساهم بالكلية»

جورج إليوت

الفصل الأول

موت الغريب

لم أعتدْ زيارة المقابر، لكن هذا ما فُرض.

فجر ليلة أمس، بينما أنا نائم على مقاعد الاستقبال بالمستشفى، أيقظني طبيب العناية المُركزة ليُخبرني أن تنفس أبي قد توقف لمدة خمس دقائق، وأُعِيد إلى الحياة بالصدمات الكهربائية.

في حدود الواحدة ظهرًا، أعلن الطبيب منع الزيارة، وبدا عليه الأمر كابوسيًّا. ضغطتُ عليه، وأكدتُ له أن أحدًا لن يأتي إلى الزيارة، ولكن يجب السماح لي برؤيته. بعد أخذ ورد وإصرار مني، سمح لي بالدخول، ربما تيقّن أن الموت يقترب.

كان جسد أبي قد تقلّص في السرير، فاقدًا الوعي، صُبغ السرير عن آخره بلون الدم الأحمر القاني، واستمر تقيؤ الدم بغزارة، فإن كان كل هذا قد خرج منه، فما الذي بقي بداخله؟!

ربت الطبيب على كتفي هامسًا: «أرجوك، وجودك الآن غير مناسب».

خرجتُ يتبعني صدى الحركة المتسارعة لطاقم التمريض، وطلب أكياس الدم، والتخلص من عبوات القيء. بين هذا وذاك بقيتُ وحدي في صالة استقبال واسعة وقابضة، يهيأ لي في امتدادها أن سقفها يطبق على أرضها، كأنها القيامة في المستشفى.

بينما تصل إليَّ تطورات الحالة بالداخل، وتكرار انقطاع التنفس لعدة دقائق أكثر من مرة، خالطتْ فكري أمور عديدة، ذكريات وأحلام وأحزان ودموع. طوال خمس ساعات وأنا أتناوب من كرسي إلى آخر، من فكرة إلى أخرى، ولم أستطِع الدخول لرؤيته مرة ثانية.

أفكر في حديثه الأخير عن البيت وعن أمي وعن إخوته وعن مساره المهني الذي كان بإمكانه أن يُبدل حياته وحياتنا جميعًا. أفكر في حديثه كلحظة كاشفة خاتمة لقصته، أعلن بنهايته حكمًا باتًّا على نفسه بالفشل.

بحلول السابعة مساءً، طلب مني الطبيب الدخول، بعد أن منع الزيارة عن العناية المُركزة بأكملها. كان أبي كما هو؛ غائبًا عن الوعي، لم يكن غيابًا كليًّا، لكنه ظل يغيب ويعود، لا أريد أن أقولها، فأكون أول مَن قالها، ولكنه ـ حقًّا ـ كان يموت ويحيا. كان السرير أبيض، نظيفًا، لا أرى منه سوى وجهه، ويده الممدودة على جانب السرير. تلقفت يده وبكيت، سقطتْ دمعة في قبضتنا، فشعرتُ على إثرها بيده بالكاد تضغط على يدي بقدر ما كان يملك من قوة.

صار جسده هزيلًا، وتراءَت القتامة في وجهه، وظلتْ عيناه مُحدقتين في سقف الغرفة الأبيض اللامع بفعل الضوء الشديد كبريق الموت.

أخرجني الطبيب بهدوء، وهو يردد: «ادعُ له».

خرجتُ باكيًا، أتحاشى النظر في أعين الزوار، أريد أن أعتذر عن منعهم من الزيارة. تواريتُ في أحد الأركان. عشر دقائق، وظهرتْ إحدى الممرضات، آتية تجاهي، بدتْ مُتأثرة لحاله، ربما كان

يغازلها، كما كان يفعل دومًا. وقفتْ أمامي، ولم تتفوه بكلمة، لكنني رأيتُ في عينيها الموت!

سقط شيءٌ بداخلي، فشعرتُ بارتطامه بالأرض. كيف آلَت الحكاية إلى نهايتها بهذه السرعة؟! ملتُ بظهري إلى الحائط، وسقطتُ على الأرض، ضامًّا ساقيّ إلى صدري، ظللتُ أنكمش إلى أن دفنتُ رأسي بين ركبتيّ ولم يرَنِي أحد. جاء الطبيب ليختم دوره الذي أتمَّه بعناية: «شِد حِيلك، البقاء والدوام لله».

استمرتْ جلستي إلى أن توافَد عدد من الأقارب، وبدأَت المواساة، وكلمات التهوين الآلية، والأحضان، والبكاء، والنحيب. ولم يصرخ أحد، فالصراخ اعتراض على قضاء الله، ونحن عائلة تعرف ربنا، أو هكذا نعتقد.

بدأ بعض أقاربنا ينظرون في الساعة لتأخر الوقت، وطلب مني بعضهم الذهاب معهم بحجة أن غدًا يوم طويل، ويجب أن أرتاح قليلًا. رفضتُ، ولم يُلحّ عليّ أحد، فالكل لم يكُن بحاجة إلى إيضاح طبيعة العلاقة بين ابن وأبيه يعيشان وحدهما منذ أكثر من عشرين سنة.

رحل الجميع، وطلبتُ من طبيب العناية أن أقضي الليل بجوار أبي، لكن اتضح لي أن هذا لم يعُد ممكنًا، فقد تم نقله إلى ثلاجات الموتى لحين الغُسل صباحًا. لم أكُن على دراية بمثل تلك الأمور؛ فالفقيد الوحيد الذي كان يخصني قبل تلك الأيام، مات في وضح النهار، ولم أشهد من إجراءات دفنه شيئًا. لكن القدَر عوضني بفقيد آخر، كي أتشبع بكل التفاصيل في موته.

كلفني الأمر مائة جنيه كي يسمح لي مسئول الوردية المسائية في ثلاجات الموتى بالمبيت بجواره، دعا له بالرحمة، واطمأن على تمام عهدته، وبحلول منتصف الليل بدأ ينام بشكل متقطع ويستيقظ ليتأكد من وجودي وأن كل شيءٍ على حاله، بدا وكأنه يتخوف أن أُعيد أبي إلى الحياة خلسة في غفلة منه ومن القدَر، لكنه استسلم في النهاية إلى النوم ليتركني في سكون تام كالموت.

كانت ساعات هادئة ومناسبة لاسترجاع كمّ هائل من الذكريات والحكايات المنسية. لكنني كنت غارقًا في لحظتي الآنية، أتحسس باب الثلاجة بين حين وآخر، أتحدث وأبكي، مُتيقنًا أنه يسمعني ويشعر بوجودي معه.

كان يرى في ذاته الفشل، وكنتُ أرى أنه بموته يُكمل سلسلة من التضحيات التي عرَفتها الإنسانية، للبقاء، ولاستمرار التاريخ البشري قائمًا على المعرفة المتوارثة عبر ذاكرة الإنسانية جمعاء. لكني على يقين أن التضحية كانت لأجل مَن لا يستحق.

كنتُ على دراية، قبل حديثه وقبل موته، أن التضحية كانت في سبيل قلوب لا تنبض وأرواح جافة لا تلين، إلا أن تفاصيل الحوادث أيقنتني من ذلك، وزادت كراهيتي وغضبي تجاه هذا النوع من بني البشر، فصِرتُ أمقت أي شخص يتحدث عن الفلوس والجنيهات، وحسابات البنوك وزيادة الأرصدة.

لا أظن في نفسي استحقاقًا لتضحيته، إلا أنني لا ألوم نفسي إلا على شيءٍ واحد، تفصيلة صغيرة ربما كانت تُنشأ لُحمة حقيقية بيننا، تفصيلة ستُشعره بمدى حبي لحياته الخاصة، بعيدًا

عن صخب عالمه الذي نعته دائمًا بالفشل. كان ذلك قبل أربع سنوات، حينما لازمتني رغبة في شراء عدة صيد والخروج معه فجرًا إلى جزيرة الذهب كي يُعلمني الصيد وأُشاركه هواية طالما عبَّر عن حبه لها، وأشار إلى ضيقه من أحد أقاربنا بعدما استعار منه الصنارة ولم يُعِدها، ربما أتلفها أو قرر الاحتفاظ بها؛ أي سرقتها. لكني لم أحقق تلك الرغبة، متأرجحًا بين الكسل، وقلة الفلوس، ومرضه شبه المزمن الذي استعمر جسده طوال تلك السنوات، وبقينا نقاوم وننتكس.. نقاوم وننتكس.. إلى أن وصلنا إلى ثلاجة الموتى.

لتكاسُلي، وربما لعشم زائد في الحياة ألوم نفسي، وآمل أن أكون هونت عليه، بمجرد السماع له؛ إذ إنه لم يستجب لكلماتي القليلة، ولم تكن تُطمئن قلبه، لم يكن لها تأثير كالنسمات الرطبة في النهار الحار. فقد كانت أيامًا عسيرة، عصرت كل ما بداخلنا من أحلام وآمال وهموم، إلى أن تجلى الجبل بعدما صار هو والأرض سواء. بلا منفذ واحد للهرب، بعد حياة طويلة، قليلة المُتع، سلّم نفسه إلى نهاية المطاف.. إلى الموت.

حكايات وذكريات وتفاصيل لن تنتهي، للتأكيد على أن الموت لن يكون فاصلًا بيننا.

شعرتُ بخمول وخدَر يتسربان إلى جسدي. بعد محاولات عديدة خلال تلك السنوات لتناسي الأوجاع التي مررنا بها، والحلم بحياة أخرى، لم تكن الأفضل، لكنها أكثر حيوية. الآن أنا خامل أكثر مما كنا نَودُّ. «هل تتذكرني حين كنتُ مُستلقيًا على الأرض

فاردًا جسدي، أتحدث عن خططي لخمسة وعشرة أعوام قادمة وأنت معي؟ لا أظن، فأنت لم ترَني بالأساس، كنت أتخفى منك، وكانت في يدي زجاجة بيرة كالتي شربتها أنت منذ أربعين سنة، كنتُ أخفيها عنك ظنًّا مني أن الحياة سلسة، وأننا نستحق أفضل من ذلك، ماذا لو لم تمُت؟ ماذا لو لم ندخل في تلك الدوامة؟ ماذا عن البحر والصيد والحياة الناعمة كالرمال؟».

سأحيا حزينًا دونك يا أبي، سأحن لك أكثر مما تظُن.

الحياة في الذاكرة مقبضة، مفعمة بالآلام والدموع.

غفوتُ، ورأيتُني أتجول في جزيرة وسط البحر، عرفتُ من مقام سيدي بِشر ـ القائم عند شاطئ البحر ـ أنني فوق جزيرة الذهب، تذكرتُ الغريب الذي أخبرني بتلك الجزيرة أول مرة، حينما لاحظ شرودي على الشاطئ، فاقترب مني هامسا: «جزيرة الذهب»، ارتعبتُ ثم ابتسمتُ إذ إنه لم يكن غريبًا بهذا القدْر.

ظللتُ أتلصص النظر إليه بين الحين والآخر كلما هلّ طيفه لامعًا على ماء البحر. ذاك الغريب يشبه شخصًا ما. شخصٌ من قلة تمنيتُ وجودهم معي فوق الجزيرة، ربما لكونه غريبًا.

نِلتُ نظرة أخرى من أبي، أقصد الغريب الشبيه لأبي، لا، بل هو أبي في زِيّ الغريب، بل هو غريب في زِيّ أبي، آلَت الصورة إلى قدرٍ كبيرٍ من الضبابية، حاولتُ أن أُمعن النظر فحاصر الصداع رأسي. مِلتُ على صخرة مرتفعة قليلًا وسلَّمتُ جسدي لنوم ساكن كالموت، متأثرًا بهيئة الشمس التى أطلّت بعد أن كانت متوارية خلف الغمام، وتبيّن من خفوت ضوئها واحمراره أن اليوم،

وربما العمر قارب على نهايته. وبخيوط ضوئها الباهت رسمتْ لوحة على سطح المياه لذاك الغريب.

وقفتُ منتفضًا راغبًا في بدء الحديث.. أي حديث، المهم لي أن يتأكد من وجودي، وأتأكد من حقيقته، لكن اللوحة تآكلت، أزحتُ عيني إلى السماء، الشمس تتوارى، نظرتُ إلى البحر، أطلال اللوحة تختفي، بدأت أزعق ولكن لا حياة، كُتِمَ صوتي، نظرتُ إلى السماء، عمَّ الغمام، نظرتُ إلى البحر، غاب الغريب.

استيقظتُ مفزوعًا إثر لمسة من يد مسئول الثلاجة، وكان ضوء النهار آتيًا من الخارج، ضاربًا في عيني. الساعة في حدود السابعة صباحًا. أعدتُ ترتيب ما حدث في ذهني، أبي مات، ويرقد خلفي في ثلاجة الموتى، وعليّ الآن إتمام إجراءات دفنه.

تم إنهاء إجراءات المستشفى سريعًا، حفاظًا على حُرمة الميت. حضر عدد من الأقارب، لإتمام مراسم الغُسل، دخلتُ برفقة اثنين منهم، وإمام الزاوية المجاورة لبيتنا ليقوم بالغُسل. أحضر شنطة صغيرة بها الكفن وصابون وليف وبعض زجاجات العطور لتطييب الجُثمان.

توضأتُ أنا والشيخ، ارتدى هو قفازًا، بينما فضّلت أن أُطيّب وأُكرّم جسدَ أبي بيدٍ عارية. بدأنا بخلع ثياب المستشفى، مع ترك قماشة سميكة لتُداري العورة، من السُّرّة إلى الركبتين. تأكدنا من اعتدال درجة حرارة المياه، وعطَّرها الشيخ بإحدى زجاجاته. شرع في الضغط على البطن ليُخرج السوائل والدم من الجوف، ثم وضع قِطَع قطن صغيرة في الفم والأنف لمنع دخول الماء.

وبالماء والصابون قام الشيخ بغسل الرأس وتطهير الجثمان دون أن يكشف عورته، ثم بدأ بالماء المُعطّر يتتبع خطوات الوضوء، بدأ غسل النصف الأيمن إلى أن أنهاه، ثم أتم النصف الأيسر، وهمس في أذني: «السُّنة أن يُغسَّل عددًا وتريًّا»، فأشرتُ له بثلاث مرات، وكررنا الغُسل ثانيًا وثالثًا بماء الكافور. جففنا الجُثمان، وقلَّمتُ أظافره، ماسحًا بين أصابع يديه وقدميه، ثم وضع الشيخ قطعة قطن كبيرة موضع الجنابة، وأخرج ثلاث لفائف بيضاء كبيرة فردها فوق بعضها على طاولة أخرى، ونقلنا الجُثمان عليها. أخرج سائلًا آخر وضع منه تحت الإبطين، والعينين، والأذنين، والفم، والأنف، والسُّرة، وختم بمواضع السجود. وتدريجيًّا بدأ الجسد يتوارى تحت الكفن الأبيض، احتضنته وبكيتُ غير قادر على تركه يرحل. قاموا بتهدئتي ودعوتي للصبر والتحمُّل والدعاء له، إلى أن أنهى الشيخ التكفين، وعقدَ الكفن من فوق الرأس بعقدتين، ومن أسفل القدمين بمثلِهما. وهكذا أتم عمله بآلية وصمت تامّ لم يتخلله إلا همهمات: «لله ما أخذ ولله ما أعطى».

حملنا النعش وخرجنا متجهين بسيارة إلى المسجد لأداء صلاة الجنازة بعد صلاة الظهر، وبعدها تحركَت الجنازة إلى المقابر. كان المدفن قد فُتِح بتصريح الدفن، في انتظار الجُثمان. دفعوني للوقوف على فتحة القبر لأسلمه بنفسي إلى مسكنه الأخير.

تحسستُ الجدار وأنا أدخل، وتذكرتُ حينما قادتني الأقدار إلى هنا عدة مرات في وفاة قريب أو غريب. أبكي وأفكر وأتأمل، فأرى نفسي في موضع أهل الميت، بينما لم أرَ نفسي أبدًا كالمدفون،

وبدا أن هذا الشعور ينبع من استحالة أن يرى الإنسان نفسه في موضع دفنه. رأيتُ نفسي كما أنا الآن، لكنني وقتذاك لم أُحدد هوية الشخص الذي سيُدفن، فقط بدأتُ أرسم تصرفاتي؛ رد فعلي على حادث الموت، الدمع، ظروف الدفن، طبيعة الجو، المطر، الشمس الحارقة، حامل النعش، مُنزل الجثمان إلى القبر، ضوء النهار، عتمة القبر، العرق، صهد الأنفاس، رمال المقابر، الحذاء المخلوع، القميص الممزق، فك عقدة الكفن، ثقل جثمان الميت، عدد المحتشدين، مَن سيكون بجواري، سأبكي في حضن مَن، الأعين المحدقة، صوت التضرع إلى الله، ستار الأسمنت الذي يُعلن النهاية، تمتمة الفاتحة، آخر الدعوات، آخر الدمعات، ووقت الرحيل..

فكرت في كل ذلك، لكني أبدًا لم أفكر في نفسي، ولم أفكر في أن هذا المشهد سيخرج من مخيلتي إلى الواقع.

وقفت على حافة القبر، ونسيتُ كل شيء، لم أُدرك تفصيلة واحدة؛ لا حرارة الجو، ولا ثقل النعش، كان كل ما يدور في عقلي هو تفكير مُكثّف، مُركّز لأمر واحد؛ رحيل رجل سأراه لآخر مرة، قبل أن يُسدل بيننا ستار أسمنتي. وصوت يعلو بداخلي: «تمتع الآن بكل ذكرى لك معه؛ لأنك حين تزور قبره لن ترى أو تجد منه شيئًا».

وصل الجثمان، وسلّمته للدفّان داخل القبر، استلمه مُرددًا: «باسم الله وفي سبيل الله»، ثم وجّه رأسه للقِبلة، وفك عُقد الكفن، فجلستُ على حافة القبر ودمعي ينسال ليتساقط مُبللًا الكفن عند وجه أبي، وكأن الدمع يُرطب وجهه ويُهوّن عليه شدة حرارة ووحشة

القبر. حاول البعض رفعي، لكني كنت مستسلمًا للسقوط، أحاول استخلاص لحظات الوداع الأخيرة. تمتم الدفّان: «اللهم أبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله». وخرج بعد ذلك، وربت على كتفي ليُبعدني عن حافة القبر، ثم وضع على فتحته قالب طوب كبيرًا، كعازل مادي حقيقي للمرة الأولى بيني وبين أبي، ثم أهال التراب عليه وأحكم غلقه بالأسمنت، رش الماء في محيط القبر. ثم وقف الشيخ على رأس القبر، وبدأ في الدعاء، وأنا أبكي إلى أن ختم: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون. الفاتحة». قرأتُ الفاتحة، ووقفت عند بوابة المقابر لتقبُّل العزاء.

رجعتُ إلى بيتنا وحدي، وبمجرد دخولي استشعرت بألم حاد في حلقي، وبصعوبة في التنفس، ألم تزداد شدته بوتيرة جنونية، إلى أن بلغ ذروته فبدا وكأنه سكين بليد يذبحني، حاولتُ المقاومة والصراخ، لكني لم أستطِع وسقطتُ على الأرض.

بدت غرفة نوم أبي مُرتبة بشكلٍ غريب، صوره ومقتنياته البسيطة متراصة على حافة السرير، ونسمات هواء رطبة منعشة تسبح في فراغ الغرفة لتترك في نفسي أثرًا طيبًا وإحساسًا جميلًا بالخفة والشفافية، كانت شفافية مبهرة إلى حد رؤية الدماء وهي تجري داخل عروق يدي، فحفّزني ذلك للوقوف أمام المرآة لرؤية ما يدور داخل رأسي، لكن هالني ضوء شديد السطوع صادر من المرآة، تدريجيًّا بدأ يخف سطوعه، إلى أن تبدّل وظهر أبي في الجانب الآخر من المرآة، ومن العالم، فاتحًا ذراعيه. جريتُ نحوه محاولًا اللحاق به قبل أن تبهت صورته وتختفي، لكني سقطتُ على الأرض مرة ثانية.

انقضَت أيام العزاء الثلاثة، وانقطعَت الزيارات، وبقيتُ وحدي في بيتنا أجهل ما يجب عليّ فعله، لكني كنتُ أعتصر برغبة في مُعاقبة كل مخطئ، وأستشعر بشراسة تنبت بداخلي وتسري في دمي لنسف القِيَم والوازع الأخلاقي، وصياغة تعاريف جديدة للثواب والعقاب.

لم أتقبل بسهولة زيارة المقابر؛ فالمكان لا يُثير مشاعري؛ جاف، يعج بالمتسولين، ليس له حُرمته، ولا أذكر فيه شيئًا تُسال لأجله دمعة واحدة، هي مقابر موتى بكل معاني الكلمة، باردة كجسدٍ ميت، لا أحد يحنو فيها عليك، فقط تقف، تقرأ الفاتحة، تدعو، وترحل. لا تُشبه غرفة النوم، والأدراج المعبَّأة بالصور والمقتنيات. لكني كنتُ أشعر بوخز في صدري إذا امتنعتُ عن الزيارة، فالقبر صار الرابط المادي الوحيد بيننا، وقد خِفتُ أن ينقطع.

توالَت الأيام وتشكلَت العادة، الجمعة من كل أسبوع. كان الحديث الخفيّ الذي يدور بيني وبين ذلك البناء الحجري الذي سيأويني بعد سنوات أو أيام أو ساعات، حديثًا خاصًّا، تذهب وتأتي، وتمر الأيام وشئت أم أبيت ستجد أن أكثر مكان مكثت فيه قبرك ثم بيتك.

مهما كانت الزيارات مؤلمة، تنهش في القلب والروح والعقل، فأنا هنا لأجل رجل آخر، لأجل إنسان كان يحيا من أجلي، كان على يقين أنني لن أخذله. أبي.. لك ما شئت.. لا شيء على ما يرام.. وكل شيء ينقصك.

الفصل الثاني

هذا البيت بناه أبي(*)

جاء صوت ضجيج خافت، ثم بدأ يعلو صخبه تدريجيًّا إلى أن أجبرني على الخروج إلى البلكونة لمتابعة ما يحدث. وجدتُ عند مدخل العمارة ما يجاوز العشرين فردًا، بعضهم بزِي مدني يتوسطهم ضابط وعدة عساكر، وبعض عُمال هَدم بجلابيب، يحملون مطارق وأزاميل، وصوت يزعق في سلم العمارة: «هيهدوا البيت علينا».

فتحت باب الشقة، فإذا بالعمال يصعدون واحدًا تلو الآخر، استفهمتُ من أحدهم، فجاء رده مقتضبًا: «انزلّهم تحت افهم منهم». أغلقتُ الباب وكأن شيئًا لم يكُن.

بنهاية اليوم، ومع اختفاء كل آثار الجلبة، أتى أحد الجيران، وكان الوحيد الذي يتعامل معي في البيت منذ وفاة أبي، مرة كل شهر، ليأخذ شهرية صيانة البيت وخلافه. فهمتُ منه أن قرار إزالة قد صدر بشأن الطوابق المخالفة في البيت، وقد جاء مسئولو الحي ومعهم مقاول الهدم التابع لهم لتنفيذ القرار، ولكن تم التفاوض معهم للتأجيل بسبب كابينة الأسانسير في سطح البيت، والتي تتطلب كهربائيًّا

(*) اسم مقطوعة موسيقية لهشام نزيه، ضمن الموسيقى التصويرية لمسلسل «أفراح القبة».

متخصصًا لفك الماكينة. صدقتُ على كلامه، وأبديتُ استعدادي لدفع نصيبي من التكاليف حينما تُحدد.

بهذا الشكل كانت رؤيته للمشكلة العاجلة، وقد بدا كساكن جديد لا يدري شيئًا عن أصل الحكاية، والذي يعود إلى ما يقرب من سبع سنوات قبل ذلك اليوم. أو ربما سبعين سنة كما قرأت في أوراق أبي الخاصة التي اكتشفتها مصادفة.

٢٥ يوليو ١٩٩١

في منتصف الأربعينيات قضى والدي أسبوعين في الإسكندرية لإتمام مأمورية تخص عمله، وأثناء ذلك الوقت كان يتجول بين أحياء الإسكندرية مُقرّرًا أن يشتري أرضًا صغيرة ويبني بيتًا للأسرة.

كان منبهرًا بسرعة الحياة السكندرية، لكنه ظل متمسكًا بريفيته، فاختار أرضًا تبعد عن إزعاج المدينة، وأقرب ما يكون إلى القطار الذي كان وسيلة المواصلات الوحيدة آنذاك. كما أن سعر الأرض في تلك المنطقة النائية هو ما توافق مع دخله المحدود كموظف حكومي ليس من الأعيان.

استمر لسبع سنوات يسافر من طنطا إلى الإسكندرية، يصرف نقوده على إنشاء البيت وتشطيبه، وكنتُ لا أملُّ من سماع الحكايات الخاصة ببناء هذا البيت، متشوقًا لزيارته ورؤيته، وحتى بعد السكن فيه بقيت تلك الحكايات عادة في ليالي الصفاء، يخبرنا عن براعته في الفصال في ثمن الأرض، ويُذكرنا بفلان الفلاني ابن الكلب الحرامي الذي اشترى منه الطوب والرمل والأسمنت. وطلاء البيت بالكامل باللون الأبيض إرضاءً لأمي الريفية التي بقيت تتعامل مع النزوح من الريف إلى المدينة كطرد آدم من جنة الخلد إلى أرض الفناء.

بعد انتهاء البيت والانتقال للعيش فيه حاول أبي أن يستمر في غرس القيم الريفية فينا، لمقاومة الغربة التي عانت منها أمي، لكننا وبعد وفاته وانقطاع الحديث عن البيت وبنائه والسنوات التي خالطت الجدران، انخرط كل منا في حياته وترك خلفه ذلك الماضي يندثر مع خليط من تراب البيت المهدوم.

بقيتُ محبًّا لذلك البيت، ولفكرته الأسطورية التي عظّمها والدي، تمنيتُ أن يستمر وجوده مهما حييتُ؛ فهو المرجع الوحيد لي، والذي لا أشعر فيه بالغربة.

هاشم المأمون
سيدي بِشْر ـ الإسكندرية

كانت الكلمات مفعمة بانكسار يتطابق مع هذا الذي انتابه حينما أُجبر على توقيع عقود الهدم والبناء، ويتلاءم مع الغرق التام في الصمت الذي تَبِعَ هذا الانكسار. كما بدت تلك الورقة كجزء من أجزاء أخرى سيكتبها عن ذلك البيت، لكنه بالتأكيد أدرك فقدان قيمة ذلك الفعل.

أما أنا، فلم يكن الأمر لي كذلك، فأنا لم أبنِ شيئًا طوال حياتي، ولا أحنّ إلى شيءٍ سوى أبي وأشيائه، لم أبنِ بيتًا، أو أزرع وردة، أو أُؤسّس تجارة، لم يكُن لي مرجع أو مُخلّص من الآلام كما كان لأبي.

كان كل حجرٍ في البيت يعني لنا ذكرى، حكاية لا تُنسى، أن تحِن إلى مكان ترتمي في حُضنه، يزيح عنك الهموم، يريح عقلك وقلبك. هكذا كان البيت بالنسبة لنا، ولأن البيت لم يكُن بجدرانه،

ولن يكون كذلك، فقد كان أمي، وأمه، وأنا، والإخوة، والدفء الذي طالما بحث عنه.

كان يحِن ويحكي ويحزن إثر الحكايات، ويسأل نفسه: «هل ما زلتُ تذكر أن البيت كان يرى البحر؟ هل ما زال يرنُّ في أذنك صوت القطار؟».

ومع تداعي المعاني والحكايات والذكريات لم يبقَ لنا سوى الخلافات الليلية، وحجر جافّ من أربعة طوابق، يُطبق على روح مَن فيه. وكيف بعد أن عشنا فيه أيامنا الخوالي، نراه بعد حين جدرانًا وأعمدةً أسمنتية تحبس بداخلها كل هذا الخراء؟!

كنا في صيف عام ٢٠١١، بعد حالة التسيّب التابعة لثورة يناير، وتعطيل العمل بالأحياء والمجالس المحلية، حينما جاء مقاول يُدعى إسماعيل السوهاجي، قيل إنه من معارف محامٍ ينتمي إلى العائلة عبر أحد فروعها المترامية. قدم المحامي مقترحًا؛ أن يتم هدم بيت العائلة القديم، بموجب عقد بيع من أبي وأعمامي إلى المقاول، وبعد ذلك يبني المقاول برجًا كبيرًا جديدًا نأخذ فيه نصف عدد الشقق المبنية، ويُقسم جزء منها كشقق بديلة للسكان الأصليين، والجزء الآخر يُقسم كميراث شرعيّ. على أن يوقع المقاول على عقود بيع الشقق الجديدة للجميع، ويقوم بسداد قيمة الإيجار للسكان الأصليين طوال فترة الهدم والبناء. وكان ذلك هو العُرف المتبع في ذلك الحين.

رفض أبي، وكذلك أنا.. هذا المقترح، بسبب مُعلن للجميع؛ أن هذا المقاول غير معروف، وأنه بنسبة كبيرة نصاب، ثم زاد الطين

بلة، واستكمالا في تتبع العُرف السائد، فإن العقود لن توقّع مع المقاول بشخصه، ولكن سيوجد مَن يطلق عليه «الكَحول» والذي يحضر كوسيط بيننا وبين المقاول، مقابل خمسة أو عشرة آلاف جنيه حسب المتفق عليه. ولا يَخفى على أحد أن المقاول يؤمّن نفسه في حال حدوث أي مشاكل مع الحكومة، أو أزمة مادية، فيختفي ونبدأ في رحلة البحث عنه وعن الكَحول في مزارع القصب.

كنتُ ساذجًا بما يكفي لعدم رؤية السوء في كل ما يحدث حولنا داخل البيت، ومع شرب الشاي، وسؤال أبي عن رأيي، أكدتُ له أنني لا أرغب في هدم البيت، فربت على كتفي، مُتودّدًا، حزينًا، تفيض من عينيه مآسٍ وآمال محطمة للعجز عن تحقيق رغبتي.

«أبي، لا تحزن، لقد أدركتُ طبائع الأمور. وأعرف أن البيت قد هُدم قبل أن تُمسك القلم بيدك».

احتدّ الخلاف، ولعب العرف دورَه، ككاسحة لتمرير أي تصرف غير منطقي. «إحنا مش أول ولا آخر ناس تِهد وتبني»، وكانت تلك الهوجة منتشرة بالفعل في كل أحياء الإسكندرية بالأخص دونما بقية المحافظات، وفي شارعنا وحده تم هدم العمائر كلها باستثناء خمس عمارات فقط. وأخذ الخلاف منحًى آخر حينما طالب البعض بميراثهم في البيت، والتلميح بأن المستفيدين فقط هم سكان البيت، ودرءًا لمشاكل نهايتها قطيعة لن تُحلّ، وجدتُهم مجتمعين يتوسطهم أبي كالمسيح في ليلة العَشاء الأخير، ورأيتُ توقيعه على ورقة تُصرّح بالبدء في هدم البيت.

«أعرف أن الضغوطات كانت قوية، أُقدر تمسكك بالبيت وعدم رغبتك في هدمه.

أعرف أن كل هذا الآن محض هراء، محض خراء، نشمه جميعًا ولا نهتم بشأنه. كلٌّ يعرف ما له وما عليه. لكن عليّ إخبارك أن البناء كان سيتداعى وتنهار ذكرياته سواء وقّعتُ بالموافقة أم لم توقّع، كل ما في الأمر أنك كنت ستؤجل التداعي لسنوات».

كنتُ ممتنًّا لسؤاله، بالرغم من عدم أهميته، كان يعني لي بأني صِرتُ في مصاف الرجال، وقد حانَ وقت تحمُّل المسئولية، وتدبُّر القرار الحسن، وأظن أنني وفّقتُ في قراري، حتى وإن لم يُنفذ.

تسللتُ خلفه يوم هدم البيت، رأيتُه يبكي، فانتابني إحساس بالشلل، وعلقتُ في تلك الأزمة، مَن منّا يربت على كتف الآخر؟ ابن يبكي لحزن أبيه، أم رجل يبكي لضياع عمره؟ لكننا لم نتكلم أبدًا.

«أبي، اعذر عجزي وقلة حيلتي، هذا العالم جبان، لا يقدر إلا أن يأسرك في ضياعك وأحزانك، ثم يستأسد عليك».

وظل السؤال قائمًا إلى يومنا هذا: ماذا لو لم يُهدَم البيت، ولم تُدك عمدانه؟!

بعد ستة أشهر من هدم البيت، بدأ المقاول المماطلة في دفع الإيجار، الذي كان مطالبًا بدفعه طوال مدة البناء. وبعد سنة اختفى تمامًا، وكان قد أتم بناء ثمانية عشر دورًا ونصف دور، يتضمنون اثني عشر دورًا ونصفًا مُخالفين لرخصة البناء المصرحة ببناء ستة أدوار فقط، وقد قام بتشطيب واجهة البيت ودهانها بلونٍ أحمر كالدم، بالإضافة لتشطيب بعض الوحدات، كما باع البعض الآخر.

كانت شقتنا تنقصها بعض اللمسات الأخيرة، فأنهيناها وعدنا إلى تلك الكتلة الخرسانية المتحولة من بيت صغير أنيق إلى بيت كبير مُشوّه، أو برج جديد كما راقَ لهم تسميته. ولم يحصل أحد على ميراث يُذكر بعد خصم تكاليف تشطيب الشقق بأقل جودة ممكنة وجعلها صالحة للسكن.

كان العائق المادي الوحيد هو عدم وجود أسانسير، غير ذلك فالبيت معنويًّا كان ولا زال لا يُطاق، تجسيد مكتمل لذلك السجن الأبدي الذي عُوقبنا به جميعًا. تكررت التجمعات كل أسبوع للبحث في شأن البيت، وجدوا ثلاث شقق لم يتم بيعها، تطوع أحد السكان الجدد بشراء اثنتين منهم بثمنٍ بخسٍ، مقابل استكمال تشطيب السلم، وتركيب الأسانسير، سنة والأخرى واكتمل المبنى بعد مرور ما يقرب من أربع سنوات. سُكِنت كل الشقق عدا آخر شقة ونصفًا، لم تُبَعَا، ولم تكُنَا ضمن نصيبنا المتفق عليه والمُقدر بتسع شقق.

تأججت الخلافات مرة أخرى بعد سنة أو أكثر من الاستقرار الظاهري الكاذب؛ وذلك لظهور عقد تمليك للشقة الكاملة، الطرف الأول: الكحول، والطرف الثاني: أسعد، ابن عم كان في السجن أثناء توقيع العقود مع المقاول. وبعد ذلك ظهر عقد آخر، لنصف الشقة المتبقية طرفه الأول: الكحول، وطرفه الثاني: إبراهيم، ابن عم آخر.

كففنا عن المشاركة بعد أن اتضح الجو العام الذي تم فيه توقيع العقود مع المقاول، بالشكل التقليدي لقصة الذئب والخِراف، يقوم

الذئب بغواية كل خروف على حدة وفي النهاية ينام ولحم الخِراف يملأ بطنه. فكلّ منهم اتفق على نصيبه وتم تطميعه بجزء آخر مقابل الموافقة على الهدم والبناء. أو بصياغة أوضح مقابل الموافقة على عملية النصب.

ابتعدنا أكثر وقتما طلب البعض إعادة توزيع الميراث مرة أخرى؛ فالبعض يرى أن الشقة ونصف الشقة حق ميراث مشاع للجميع، وأصحاب العقود يرون أنهما مثل المُلّاك الجدد الذين باع لهم المقاول، وزعم أسعد أنه دفع إلى المقاول مبلغ أربعين ألف جنيه، بينما ارتكن إبراهيم إلى الصمت.

انقطعتُ عنهم نهائيًّا بلا رجعة حينما مات أبي، وما زلت أحاول بيع الشقة، لكن سمعة البيت السيئة ظلت عائقًا ضد الحصول على المبلغ المطلوب. لكني استعنتُ على ذلك بطبيعة العمل في مواقع مختلفة بالقاهرة والبحر الأحمر لأسابيع متتالية ولا أعود إلا مرة كل شهر لمدة يومين أو ثلاثة.

نسيتُ الخلافات ونسيت البيت والعائلة، وبدا لي أنهم نسوني، ولا يتذكرونني إلا إذا لمحني أحدهم في إحدى إجازاتي القصيرة. ربما يتتبعون أخباري بالتصنت والتلصص كما اعتدتُ منهم، وكان ذلك دافعًا أكبر للنسيان، فأنا كنتُ أعدو في طريقي وحدي، بينما يحتد صخبهم في طريق آخر.

كنت أعيش الحياة الأسطورية؛ البحث عن التفرد والخلود، الرغبة المغلفة برداء التخلي، والغرائز التي يسوقها إحساس

بالترفع عن كل شيء. لم أكن بحاجة إلا لشخص يلقي بي من قمة خيالي العبيط إلى نبش التراب عند قبر أبي، لأتحسس بيدي معنى الفناء والزوال. وفي محاولة جديدة لإعادة صياغة الأمور وإنتاج شيء مختلف عما حدث قبل فتح القبر الفارغ وإغلاقه ممتلئًا. كان لا بد من الانتظام في نمط الحياة الطبيعي، الذي يحياه ٩٩٪ من المحيطين، والتخلي عن تفرد الواحد بالمائة، والاستمرار في السعي نحو هدف غير معلن؛ الرغبة أكثر في الاختفاء.. أن أصبح جزءًا من الماضي، ثم أتلاشى من الذاكرة. لكن قبل ذلك أمُرُّ بلحظة الوميض التي تُسلط الضوء عليّ وتجعلني بؤرة الحدث.

أشعلتْ حملة الإزالة الخلاف بينهم جميعًا مرة أخرى، وكان خصْمَا الخلاف، هذه المرة، أسعد وإبراهيم. ففي اليوم الثاني، جاءت الحملة وهدمت كابينة الأسانسير، ونصف شقة إبراهيم، وحوائط شقة أسعد. وأُشيع أن الحملة جاءت بإخبارية ضد أسعد، لتعديه على الضابط بالأمس، ومع ذلك صار إبراهيم المُتضرر الأول. وحدث شِجار وسباب وتهديد بين الاثنين، وأجمع السكان على أنهما لم يغرما شيئًا، وأن السكان هم المتضررون بسبب تكاليف إعادة تشغيل الأسناسير، ووُضع إبراهيم وأسعد في خانة واحدة كجلّابي مصائب. وأخذت كل أسرة صف ابنها، فضمهم الجمع إلى نفس الخانة، فتقطعت الأوصال، ولأول مرة تنقشع صورة العائلة الواحدة المترابطة، وتتجلى الخلافات بقوة تصل إلى حد الاستعانة ببلطجية من رفاق أسعد في السجن، لحماية شقته التي أقسم إبراهيم على هدمها إن لم يُسمح له ببناء

نصف شقته مرة أخرى، لكن الجميع قد أقروا في محضر رسمي على الإبلاغ في حال حدوث أي محاولة للبناء وإلا سيتم توقيع غرامات مالية، وإزالة كل الوحدات المخالفة حتى وإن كانت مسكونة؛ وبالتالي تحول أسعد إلى حامي البيت من مصيبة لن يتحمل أحد عواقبها.

حاول البعض، ممن لا زالوا آملين في تلك العائلة خيرًا، التوسط بين أسعد وإبراهيم، باقتراح أن يتم بيع الشقة وتقسيم ثمنها عليهما، لكن أسعد رفض بعنادٍ، وأكد أنه لا ذنب له، وأن إبراهيم هو المُروّج لإشاعة أن الحملة جاءت له بشكل شخصي.

أمّن البلطجية الذين استعان بهم أسعد البيت؛ اثنان في الشقة، واثنان معه عند مدخل العمارة، ويبدو أنهم كانوا مأجورين، فلم يستمروا كثيرا، وظل أسعد وحده يبيت في مدخل العمارة، تاركًا كلبًا شرسًا داخل الشقة ليحرسها، وكان يرى في نفسه كفيلًا بدَرْء أي خطر يهدده.

كنت دخيلًا على تلك الخلافات، وبعد موت أبي صرت بالنسبة لهم شبحًا يظهر مرة واحدة كل شهر أو اثنين، ولم أسعَ لمَد حبل الود مرة أخرى، وعارضتُ كل سُبل خلق روابط وثيقة مع العائلة؛ لذا كان السفر هو سبيلي الأمثل للاختفاء، حتى لا يُقحمني أحد في وساختهم. وبالفعل قطعتُ إجازتي، وتواصلت مع مديري في العمل لتنسيق السفر مع أول سيارة متوجهة إلى البحر الأحمر. لم أجد فيهم أبدًا مَن يفتقدني، أو مَن أود توديعه. سأسافر، فيطويني النسيان.

صباح اليوم التالي، أعددتُ شنطة السفر، وتأهبتُ للنزول، فإذا بطَرْق عنيف على باب الشقة، فتحتُ لأجد أمامي ضابط شرطة وخلفه عدد من الجيران، نظر إليّ، وإلى شنطة السفر، ثم سألني:

ـ حضرتك يحيى هاشم المأمون؟

ـ خير؟

فجاء على إثر سؤاله صوت يصرخ من أسفل السلم: «إبراهيم دبح أسعد».

بدا التجهم على وجه الضابط، وكأنه أراد أن يرى رد فعلي حين يخبرني بنفسه عن الحادث، إلا أنني لم أتأثر من الصراخ أو من تجهم ملامح وجهه. فأشار إلى الشنطة، وسألني:

ـ إيه الشنطة دي، إنت مسافر؟

لم أبالِ بجدية حديثه، أو بنبرة الاتهام، وتعاملتُ معه كضابط تفتيش في كمين على الطريق أثناء السفر. أخرجتُ له كارنيه الشركة وكارنيه النقابة والبطاقة الشخصية دفعة واحدة، وكان هذا هو سلاحي دائمًا مع أي ضابط، وعرفته بنفسي: المهندس يحيى هاشم، مهندس بهيئة الطرق والمواصلات. موضحًا طبيعة عملي التي تتطلّب السفر بشكل دوري.

أمر رجاله بإنزال الجيران، وطلب مني النزول معه، وتأجيل السفر، وبدأ يقص عليّ ما حدث. باقتضاب، ربما يتطلبه عمله:

ـ وجِدَ أسعد مقتولًا في مدخل العمارة، نُحرت رقبته بسكين حاد، فجزت شريانَي رقبته، وقال دكتور الطب الشرعي إن التقرير سيؤكد إن كان مخمورًا أو تحت تأثير مُخدر.

كان أسعد يعلم مدى احتقاري له، ليس بسبب كونه منبوذًا لسجنه بسبب تجارة المخدرات، لكن لدناوته؛ فأنا لا أملك معه إلا ذكريات عن الوضاعة؛ أهمها: حين استيقظتُ بعد منتصف الليل على رنين جرس باب الشقة، فرأيت أباه مُلقًى على الأرض في إعياء تام، أسندته وأدخلته، وفهمت منه أن أسعد ذهب لشراء دواء كي يأخذه لتلك الأزمة، لكنه تأخر. تركته في البيت، ونزلتُ أبحث عن صيدلية تعمل في ذلك الوقت المتأخر، وفي طريق العودة، بينما أنا أقطع الطريق عَدْوًا، وجدت أسعد يتمخطر في مشيته ويقف مع أي شخص يُصادفه.

كنت قبل ذلك أميل إلى أن سبب الخلافات اهتمام كل منهم بشأن أسرته فقط، ولا يشغله حال باقية العائلة، لكن أسعد كان مثالًا صارخًا للأنانية فلم يهتم بقريب أو غريب. بعد ذلك بثلاثة أشهر مات أبوه في الحمَّام دون رعاية.

بوصولنا عند المدخل، سمعت الصراخ والعويل، ورأيت الذعر في أعين الجميع، وسيارات الإسعاف والشرطة، وإبراهيم باعتباره المتهم الأول، وبدأ تحقيقٌ موسع عما حدث في الأيام القليلة الماضية، وتم استدعاء ضابط الحي، ومقاول الهدم، وكل مَن كانت له صلة أو على خلاف مع أسعد.

لم يلتفت أحد باهتمام إلى الماضي البعيد، والأغرب أن أحدًا لم يلتفت إليّ، بما في ذلك ضابط المباحث الذي اكتفى بحديثه أثناء نزول السلم، وأم أسعد لم تنتبه إليّ حين رأتني، رغم الكراهية التي نُكنُّها لبعضنا البعض، فتأكدتُ أنني مَنسيٌّ بالفعل؛ وكان

ذلك أفضل مما توقعت. فقد خفت أن يكون أحدهم قد رآني أثناء خروجي أو عودتي قبل أذان الفجر، فقد نزلت درج الطوابق الستة بهدوء تام، وعند صف الدرج الأخير وجدت أسعد يرتكن بكتفه اليُسرى على الحائط وباب العمارة مُغلق، أدار رأسه جهة اليمين، ليرى مَن القادم، ألقى عليّ نظرة خدرة، غير مكترثة، ثم أعاد رأسه مرة أخرى، ناظرًا في موبايله، الذي كان يُسليه طوال الليل.

ألقيتُ نظرة على جثة أسعد، فرأيتُ عنقه المذبوح، وتذكرتُ حينما حكى لي أنه لم يحلق ذقنه أبدًا عند حلاق، ونصحني بذلك، فهو لا يثق أن يُسلم رقبته لحلاق لا يعرف نواياه، ولن يترك حياته لخطأ مقصود أو غير مقصود من يد الحلاق حين يضغط بالمُوسَى على شريانه. وأوضح لي أن هاجسه هذا وراثي، ورثه عن أبيه، وعن عالمنا المخلوط بالمؤامرة، وعن إدراكه أن الموت أقرب مما يظن الجميع.

احتُجِز إبراهيم، وظل الجميع تحت رهن التحقيق في أي وقت، أما أنا فقد تم استثنائي بعد تدخل من اللواء المسئول عن الإشراف على الأعمال المُنفذة لهيئة الطرق، وسافرتُ إلى البحر الأحمر، غير عابئ بنتائج التحقيق، أو بالموت الذي صار ككرة ثلج ضخمة تتدحرج وتبتلع الجميع.

الفصل الثالث

علاقات مبتورة

(١)

كنتُ أُشبه إبراهيم؛ ابن عمي الذي يكبرني بخمس سنوات، إلى حد التماثل؛ إذ إنه كان بالنسبة لي شخصًا غير عادي، لا يشبههم جميعًا، له صفات استثنائية، يقدر على فعل أي شيءٍ، لا يخشى أحدًا، بالإضافة إلى ذلك ينال تقديرًا من الجميع.

أتذكره حين أتى معي لحل مشكلة في المدرسة، وقدَّم نفسه كأخٍ أكبر لي، وانتهت المشكلة في الحال.

كما كان يُضحكني بنكاته البذيئة، ويشد انتباهي بملكته في الحكي، ومواقفه غير المُتوقعة، لم يعُد بعده ضحك، صار الأمر مُجاراة للحديث.

كُنا نسهر معًا، يجمعني بأصدقائه، ولا يخجل من صغر سني، يُقحمني في كلامه، يزجرني حين أصمت: «تعوَّدْ أن تفرض شكلًا لك في أي وقت». نسهر في أُمسيات الشواء، نلعب طاولة وكوتشينة وشطرنج، حينما يأتي الصباح نذهب إلى البحر، ونُطيّر طائرة ورقية كبيرة، كنا صنعناها طوال الليل.

أتذكر أول عمل لي، كان معه، وأول راتب، كان منه. نصف جُنيه، بعدما خَصَمَ نصفًا آخر، بسبب هدر المياه المُعدة سلفًا للحيوانات التي كُنا نُربيها.

كان الصواب، بالنسبة لي، جزءًا من تصرفاته. رأيتُه يُدخن لأول مرة، فاستفهمتُ، لم يقُل شيئًا. حينها ظننت أن ذلك أمر طبيعي بحكم سِنّه، فقد كان كُل الكبار يُدخنون.

كُنا في البحر نستحم. ذهب قليلًا، ثم عاد يحمل كيسًا أسود، جلس وأخرج ما فيه، كانت زُجاجة خضراء أشبه بزجاجات المياه الغازية. وقال لأحد أصدقائه: «كوز واحد يكفي لاثنين»، كوز! لم أفهم وقتها، وفي البحر ونحن نستحم استفسرتُ! فأخبرني: «كوز بيرة».

كانت الحياة بالنسبة له ألطف مما نظُن جميعًا، هذه الدنيا للمتعة، والمتعة فقط. ورغم ذلك منع عني كل ما يفعله ويُمتعه، فلم أُدخن سجائر، أو نفَسًا واحدًا من الحشيش، ولم أتذوق طعم البيرة، وكان يتعارك مع أصدقائه بسببي؛ فالكأس تدور وخلفها سيجارة الحشيش، فيسحبهما من يدي فور وصولهما إليها، ويزعق فيهم مؤكدًا أنني خارج تلك الحلقة.

انقطعت الصِّلة بيننا لفترة من الزمن، لأسباب لم يكُن لنا دخل فيها، ولكننا كُنا نحافظ على علاقتنا أمام الأغراب والأصدقاء، كي لا يتدخل أحد في شئوننا الخاصة.

مر وقت القطيعة، وعادت الحياة إلى وصالٍ مختلف، مختلف بمرور الأيام، والأحزان. سَنة والأخرى فتأتي قطيعة والأخرى،

وبلا تدخل منَّا، إلى أن وقعت القطيعة الكبرى بعد هدم البيت، حيث رحل كلٌّ منّا عن الشارع الذي كنّا نسكن فيه، فلم تعُد هنالك صِلة إلا بالمصادفات التي اعتدنا عليها.

استمرت القطيعة بعد ذلك لظروف رغم إرادتنا. مرت مواقف عدة، تمنيتُ أن أحكيها له، لكن الأيام توالت، ولم أقدر على إيقافها.

وكأن هدم البيت كان مُفترق طرق في كُلّ شيءٍ.

بدأتُ دراستي الجامعية بعد تفوق في الثانوية العامة. بينما بدأ هو طريقًا آخر لم أفهم منه شيئًا. بعد أن مر ما يقرُب من سنتين توصلتُ له، لم أستطِع الكلام معه، لم أفهم منه شيئًا، ولم يفهم مني شيئًا. كانت لغته قد تغيرت تمامًا؛ دائمًا مخمور، وعدة الحشيش لا تفارقه طوال الوقت، مشاكل ومشاجرات مع بلطجية وموزعّي مخدرات، يُلاحقه عدة شخوص؛ هذا له فلوس، وذاك اعتدى عليه... وهكذا لاحقته سُمعة سيئة، لم يعرفها أحدٌ منّا من قبل.

تمنيتُ أن أقدر على فعل أي شيءٍ يُساعده، لو كُنت أنا الكبير، لضربته، أجبرته على ترك ما هو فيه. لكنني كُنت أقف أمامه خائفًا، قلبي يرتجف، وشعرتُ أن الزجر والوَكْز اللذَيْن كانا لصالحي في صغري، قد يتحولان الآن إلى انتقام من أمرٍ لا يعلمه إلا هو، ورُبما هو أيضًا لا يعلمه.

رحلتُ مُتألمًا. من أين لي كُل هذا العجز؟! بعد أيام، سمعتُ خبر القبض عليه، وبعد أسابيع، صدر ضده حُكم بالسجن ثلاث سنوات.

رأيتُ فيه ضحية لنفسِه، لم يكُن ضحية لأحد، كرهه الجميع، وظللتُ أنا محتفظًا له بكل ما هو جميل. ظللتُ مُقتنعًا بأنه يملك وجهًا آخر لم يُطلِع عليه أحدًا غيري. فلكُلٍّ منّا جانبه السيئ الذي يجب أن يجتهد في مُواراته، وإلا تجلى وطغى على كُلّ محاسنه. رُبما كانت أكبر خطاياه أنه لم يجتهد في إخفائه.

أتذكر لقاءنا الأخير، كان يقف بين عدة معارف، استدللتُ عليه حينما سمعتُ صوته ضمن الضحكات المجلجلة في الهواء، وقفتُ قليلًا ثُمّ اتخذتُ طريقًا نحو الجمع، فرّقتُ السلامات يمينًا ويسارًا إلى أن تصنمتُ أمامه. مددت يدي للسلام، فمد يده. تأملنا هيئتنا، إلى أن صار السلام جافًّا، بغيضًا، ثم غرب كلانا بوجهه عن الآخر، ولم نتفوه بكلمة.

تمنيتُ لو فردتُ ذراعيَّ، واحتضنتُه، كصديقٍ قديم. لكنني شعرتُ بخيانة عهد أبي، فلم أقدر.

(٢)

كان لانخراطي في حياة إبراهيم، أثرٌ سلبيٌّ على دراستي، فقد قَلّت أيام حضوري في المدرسة بشكل ملحوظ، وكنت حينها في صف إتمام الشهادة الإعدادية. كما قَلّ تواجدي في المقهى مع أصدقائي، فزادت أسئلتهم: «أين تذهب؟ ومع مَن؟»، وكنت أخفي عليهم، ظنًّا مني أن ذلك قد يترك في نفوسهم إحساسًا بالغيرة مني، لأنني الآن أصبحت في مصافّ الرجال. بينما هم لا يزالون يُنظر إليهم كالأطفال.

وفي أحد أيام حضوري، أوقفتني الأستاذة منى مُدرسة الدراسات الاجتماعية، وسألتني عدة أسئلة لم أفلح في الإجابة على أي منها. فطردتني. خرجت من الفصل، ومنه إلى السور الخلفي للمدرسة، ومنه إلى المقهى، جلست رفقة عم جاد، القهوجي، الذي تعجّب من خروجي وحدي، فأشرت إلى المدرسة قائلًا: «مكان وسخ. طُردت».

لم ينصحنا عم جاد لمرة واحدة بالرجوع إلى المدرسة، أو ضاق بنا، دائمًا يستقبلنا بلا تأفف. بدا أن ثمة عداوة بينه وبين المدارس أو التعليم عامة. كانت التاسعة صباحًا والمقهى شبه خاوٍ، أعد لنا كوبين من الشاي بالحليب، وجلسنا نلعب الشطرنج. لم أفُز عليه دورًا واحدًا، وغادرتُ بعد خروج الطلاب من المدرسة.

قابلت كريم عند محطة القطار، وأخبرني أن ميس منى بحثت عني بعد الحصة، وأبلغت الإدارة بأني هربت من المدرسة، وجهزَتْ لي استدعاء ولي أمر.

رأيتُ شبح أبي يدخل المدرسة، مثلما دخل المدرسة الابتدائية من قبل، ورأيت صفعة أخرى على وجهي منه هذه المرة. دبّ فيَّ الرعب، إذ إنني اعتدتُ عليه بعيدًا عن تفاصيل حياتي، ولم أتخيله وهو يُقحم نفسه فيها ويتمدّد بداخلها. ثمة شيء يتفاقم بداخلي؛ الشبح سيصير كل حياتي.

ما إن دخلت البيت، حتى تبين لي أن المدرسة لم تتمهل وصول الاستدعاء إلى البيت، وعجلت باتصال تليفوني أخبروه فيه بكل شيء بالأرقام؛ عدد أيام الحضور، ومُعدل الغياب الذي تجاوز النصف، ودرجات الامتحانات الشهرية.

دخلت أحاول تهيئة نفسي لامتصاص الصفعة وتجاوزها، إلا أنه لم يبالِ بدخولي، وأنهى أكله، ثم دخل ينام، تاركًا لي نصيبي من وجبة الغداء.

ادّعيتُ النوم حين استيقظ في المساء، تجنبًا للخناق.

في صباح اليوم التالي، بينما أستعدُّ للنزول إلى المدرسة، كان عائدًا من الدكان. شرب كوبًا من الشاي، وقام ليَنزل معي. كنت أتوجّس مِن بدء الحديث، وأشعر بفوران في رأسي، وقلبي ينبض سريعًا، كنت خائفًا. وكان هذا أوضح شعور لي تجاهه تلك الفترة. إلا أنه كان هادئًا، كما كان دومًا، غير مبالٍ بي وبالحياة كلها. وخلال الطريق، شرع في حديث طويل كان كوصايا ما قبل الموت.

«في الأول بس أنا عايز أقولك كام حاجة، عشان أنا ما أحبش أقول نص الكلام، وأسيبك تتوقع الباقي، لازم تبقى عارف إني على علم بلمّتك على إبراهيم؛ ابن عمك، وعارف إنت بتعمل إيه، ومش بتعمل إيه، وإوعى تكون فاكر إنه عشان مش بيخليك تشرب معاهم، إنه كده بيحبك، دا عيل شرموط شَبه أمه. وعارف بموضوع التزويغ من المدرسة من قبل ما همّا يبلغوني، وعارف بقعدتك على قهوة التجارية، والصرمحة في الشوارع. بس يعني كنت بقول أسيبك تعيش وتجرب، عشان إحنا جربنا قبلك، واتعلمنا قبلك. وأنا هخلّص كلامي، ومش هقولك اعمل وما تعملش. أنت حر، ياكش تولّع في نفسك وفي البيت كله.

تاني حاجة، سؤال: هل إنت عارف إن اليومين اللي إنت عايشهم بالطول والعرض دول، هما اللي إنت المفروض تبقى بتحدّد فيهم

إنت رايح على فين بقية حياتك؟ طبعا لأ. لإنك لو عارف ماكنتش هتعمل كده، وأنا لو كنت عارف ماكنتش عملت كده قبلك، والدنيا دلوقتي مابقتش زي زمان، الدنيا بتضيق، والحياة بتتخنق، واللي مش هيبقى له فرصة هينداس في البلد بنت القحبة دي. دا أول هام، وفكّر في الكلام كويس، عشان يمكن ماتسمعهوش تاني.

سؤال تاني، وفكّر فيه كويس. فِكرك كده نهاية اللف والبرمجة دول إيه؟ يعني شايف فيهم حاجة تخليك متساق كده؟ لو شايف قولّي، وأنا أتبرمج معاك، لو مش شايف قولّي وأنا أوريك. عندك أسعد ابن عمك، أهو ده أكبر منك ييجي بعشر سنين، ومن إبراهيم بخمس سنين، فكمان خمس سنين هتلاقي إبراهيم زي أسعد، وإنت زي إبراهيم، وخمسة كمان وتبقوا كلكم شبه بعض. وكمان تلاتين أربعين سنة هتبقى شبهي.

تعرف عنهم إيه إنت بقى عشان تبقى ماشي بقلب جامد كده؟ إن كان أسعد البرشمجي اللي سُمعته سبقاه، ومرمي في السجن بسبب الزفت الحشيش، ولَّا إبراهيم مايفرقش عنه، بس لسّة دوره ماجاش، وشغال إيه.. بيّاع في محل هدوم، بياخد له كام ملطوش، وبيسرق هدوم من المحل يبيعها لصحابه في الشارع، يعني حياة كرب بنت ستين وسخة. ولَّا نِفسك تقف في دكان زيي؟ تبيع لبن وجبنة، وييجي لك كل شوية معرصين من الضرايب يسرقوك، وربنا يرزقك بشراكة مع ناس زي البلاعات ينهبوا تعبك وصحتك، وتفضل داير في ساقية زي الحمار!

لو إنت شايف ده، وعاجبك، يا أهلا وسهلا اتفضل، إنزل وشيل خرا معانا، لو مش شايف أديني بافتح لك دماغك. ومش باخلّص

ذمتي قدام ربنا وخلاص، إحنا اللي زيينا ذمته فيها كتير، عشان يخلصها يروح يموت أحسن. بس أهو لو عايز تمشي في الطريق العِدل بس تايه ولّا مش فاهم، يبقى دلوقتي فهمت عشان تعرف تختار.

أنا يا ابني عُمري ما كنت شاطر في حياتي، ولا عرفت أختار صح، حياتي كانت فشل ورا فشل، وفشلي معاك مش هيزوّد الفشل دا واحدة، ونجاحي معاك مش هيشيل عني فشل سنيني اللي فاتت.

آخر حاجة، عشان تبقى عارف أنا ماعنديش وصفة سحرية أقولك اعملها، وهتبقى حياة سُكر وهَنا، بس زي ما فتّحت لك عينك ووريتك السكة دي آخرها عامل إزاي. فهقولك برده تبُص على مين وتشوف سِكته كانت عاملة إزاي، كل اللي أعرفه عنه دلوقتي إنه قِدر يسحب نفسه من كل الهم اللي بنشوفه ده.

هيثم ابن خالتك، مهندس محترم، روح له واسمع منه، هوّ مش هيصدك، ولا هيبخل عليك، عالأقل إكرامًا للمرحومة أمك. عجبَك الكلام خير وبركة، اسأله أكتر، واعرف منه أكتر، عمل إيه في دراسته، في حياته عمومًا، واشترِي منه. ماعجبكش يبقى ماتلومش بعد كده غير نفسك. إنت خمستاشر سنة دلوقتي، يعني مش صغير، وأنا واثق إنك تقدر تختار صح.

ولو في نصيحة أخيرة، فهي بلاش تبقى تابع ومِتساق ورا حد، اتعب شوية في إنك تفكّر في الكلام، ويبقى ليك رأي، عشان لو مشيت يمين أو شمال، وبقيت في ديل حد، لا هتحصّل صايع ولا هتحصّل محترم، وهتفضل طول عمرك حُمار.

يلّا ادخل مدرستك، وربنا يقدم لك اللي فيه الخير».

قال جُملته الأخيرة وربت على كتفي بابتسامة وداع خفيفة ثم رحل.

دخلتُ المدرسة كالمسحور، واقعًا تحت تأثير المخدر الذي حقنه لي أبي في كلامه. فلم أكن أتوقع أنه يعرف عني كل تلك التفاصيل، كما كنت أظن أنني على قدر كبير من الحرص والحيطة.

كان حديثه مربكًا، نزل على دماغي كجردل ثلج، وكانت المرة الأولى التي يطلق لسانه للسب والشتائم. جاء الكلام محفزًا للتفكير، ينقلني من مرحلة إلى أخرى، ويُشير إلى الحالة العامة من التأثير والتأثر، والسبب والنتيجة، في الوقت الذي كنت أظنني سأعيش حياتي كلها في تلك الحالة. مكتفيًا بلعب الدومينو، وأخذ المصروف.

لا أتذكر آخر مرة زُرت فيها خالتي، وتعجّبت من أن أبي لا يزال يذكرهم، فكنت أظن البشر يتساقطون من ذاكرته ولا يبقى فيها سوى الدكان. اتصلت بخالتي وتأكدتُ من أن هيثم موجود، وقلت لها إني سآتي لزيارتهم، كانت ودودة وطيبة، وتعاتبني دومًا على عدم زيارتها.

حينما دخلت شارع بيتها في الورديان، تذكرت ماتش ٦/ ١ بين الأهلي والزمالك، وتذكرت كلام أبي عن أن هيثم استطاع أن يسحب نفسه من كل الهم والخراء المحيط بنا.

لم تربطني من قبل أي علاقة بهيثم، كانت مجرد حديث عابر كل سنة مرة، فقد كان أكبر مني بسبع سنوات، وكان يبدو لي مُملًّا، قليل الكلام، عكس ما كنت أرى في عائلة أبي، كانوا جميعا يُجيدون الثرثرة والتمتع بكثرة الكلام.

دخلت عليه غرفته، فوجدته يلعب شطرنج مع نفسه، وأوضح لي أنه يتدرب على خطط جديدة اطلّع عليها في الكتب، فكان ذلك مِفتاحًا جيدًا لبدء الحديث بيننا؛ إذ إنني كنتُ أحب تلك اللعبة، رغم أني لم أكن أجيدها، لعبت معه دورًا فتغلّب عليّ، لكنه أكد لي أنني بإمكاني التدرب معه إن شئت. فقلت له إنني سأفعل ذلك، كلما سمح الوقت.

قلت له إنني سأنهي الشهادة الإعدادية خلال الشهر القادم، وأريد أن أسمع نصائحه عن بُعبع الثانوية العامة. لم أزد أكثر من ذلك، فلم أكُن أتفهم بالضبط ما يجب عليّ أن أسأل عنه، لكنه فهم الغرض من سؤالي، وبدا لي أنه انتشى حين شعر بأن هنالك مَن يحتاج إلى سماع خبراته في الحياة، وهذا هو الإنسان، يحب أن يشعر بقيمة رحلته ونفسه في أعين الآخرين.

رغم نشوته جاء رده بسيطًا ومحددًا: «الموضوع مش صعب خالص، هو بس محتاج تركيز، وتفَضّي له دماغك، وأنا معايا كل مَلازم ومذكرات الثانوية، ممكن تاخدها، وأنا ممكن أشرح لك أي مادة، ولسة في وقت ماتفكرش في الموضوع من دلوقتي».

شعرت وكأنه يؤجل بعض نصائحه، أو أن باله ليس صافيًا بالدرجة الكافية. فقام برصّ قِطَع الشطرنج، موجهًا كلامه لي: «نلعب دور تاني؟».

خلال اللعب قال لي إنه مهندس ميكانيكا، وأن شغله بعد التخرج سيختلف عن عم عربي الميكانيكي في شارعنا؛ لأنه يدرس هندسة الميكانيكا، وسيكون مهندسًا وليس فني ميكانيكا.

لم أفهم في ذلك الوقت الفرق بين المهندس وفني الميكانيكا بشكل واضح، لكنني سوف أفهمه وأعيشه بعد ذلك بسنوات.

نادتنا خالتي لتناول الغداء، وبعد ذلك جلستُ معه نلعب دور شطرنج أخير، انتهى بالتعادل. عرفت بعد ذلك أنه كان يتساهل معي حتى لا أكره اللعبة، التي كان يراها مهمة جدًّا لنشاط العقل.

قبل نزولي جاء بشنطة خضراء كبيرة نسبيًّا، وأوضح لي: «أنا حطيت لك فيها كل المَلازم، والمُذكرات، ومعاهم شوية كتب على روايات كنت قريتها زمان، القراءة عمومًا بتفتّح الدماغ. هتفرق معاك».

أخذتُ الشنطة، وشعرت بدمعة ترفّ في عيني، فشددتُ عليها كي أمسكها. فقد كانت أول مرة أشعر أن هناك أحدًا يهتم بأمري، ويوجّهني، ويعطيني من أشيائه الخاصة.

سلمتُ عليهما، واعدًا بأن أكرر الزيارة في وقتٍ قريب. وقفتُ بجوار باب البيت فور إغلاقه، واضعًا وجهي بين يديّ.. وبكيتُ.

(٣)

بحر سيدي بِشر ـ صيف ٢٠٠٩

كنت عائدًا من شغلي بمحل الإلكترونيات في منتصف الليل، فسمعت صوت جلَبة آتية من سطوح البيت، صعدت، فوجدت جمعًا من أبناء العائلة وأصدقائهم، لكنني لم أجد إبراهيم بينهم. دعوني إلى الانضمام، فتحجّجت بالعمل صباحًا، وتمنيت لهم سهرة سعيدة.

بدأتُ ذلك العمل بعد إتمام شهادة الإعدادية، وجدتُ أن ذلك الوقت مناسبٌ لإثبات حُسن النية، والعمل بجدٍّ في المسار الذي ظن أبي أنني سأختاره، ولأن الرجال لهم طبائع مختلفة، وكان هذا اعتقادي آنذاك، فقد قررت أن أعمل.

عرضتُ الأمر على أحد أقاربي، فوافق، وأخذني معه ليُقدمني لشريك له، صاحب محل إلكترونيات، وبدأت الشغل الذي استمر لثلاثة أشهر خلال إجازة الصيف.

اعترض أبي في بادئ الأمر، مستنكرًا المرمطة، وعدد ساعات العمل الممتدة بطول اليوم، فقد كنت أعمل بدوام اثنتي عشرة ساعة من منتصف النهار إلى منتصف الليل تتخلله ساعتان للراحة وتناول الغداء. لكني أذكر تعليقه الذي نُحت في ذاكرتي: «عمومًا أنا كنت باشتغل نَقّاش وأنا قدك، شاطر خليك تتعلم». تلك الكلمات تُعد أهم وأجمل مدح سمعته في حياتي كلها؛ لأن دلالته كانت أبعد وأعمق من تحمل المسئولية، والاعتماد على الذات، كل ذلك كلام مهم لكنه لا يحتاج إلى إثبات. الدلالة التي استنبطتها وأنا أخلو بنفسي بعد يوم عمل شاق، أنني الآن صِرتُ مثل أبي، أسير على خُطاه. ويومًا ما سيشتد ساعدي، وتبرز عضلاتي، وأقدر على فتح برطمانات المربّى، وعِلب السمن، وتصليح الكهرباء، يومًا ما سأصير مثله، وأرث عنه طِباعه وخصاله، يومًا ما سيخلط الناس بيني وبينه وسيظن البعض أنني هو، سيخلطون بيننا للشبه في الشكل، والصوت، وللشبه الذي تمنيتُ وجوده بالفعل.

بعد أسبوع من العمل، جاء أحمد رُمان صاحب الدكان، وأعطاني مائة جنيه، وأخبرني أن راتبي الشهري سيكون أربعمائة جنيه. ورغم قلة المبلغ إلا أن الدافع كان أن أندرج تحت بند الشغّيلة. وقد كان ذلك سببًا في تناوبي على عدد من الأشغال بمرور السنوات التالية في محاولة لفرض السيطرة على حياتي عبر تطوير بعض المفاهيم.

أدركتُ بعد أقل من شهر قيمة الحرية، ومُتعة لعب الكرة في الشارع. لكني بدأت أتغلب على الرغبة في التملص من مهامي والذهاب إلى اللعب بلذة امتلاك الفلوس، والغِنى النسبي عن بقية أصحابي، هذا بالإضافة إلى الشعور بالتفوق، فبينما كانوا يصرفون من مال أهاليهم كنت أصرف من عرق جبيني.

تطور الشعور إلى تمرد على السلطة الأبوية، وذلك بعد التخلي عن الحاجة المادية، وكانت الأمور حينها تُحسب بالجنيه، مع بعض المراهقة الفكرية، واشتداد الساعد، إلى أن انتهى الأمر بتصرف صبياني في العمل، ينمّ عن صغر سن صاحبه، وقلة خبرته، ولا يتناسب مطلقًا مع الهدف المرجوّ. فقد شعرت بالغيرة من أقارب صاحب المحل الذين اقتحموا حياتي العملية الهشة، وانزعجت من تداخلهم المتصاعد باعتبارهم شركاء ببعض المنتجات الجديدة، فرفضت أن أكون تحت طوعهم، وبيع منتجاتهم، إلى أن حدث خلاف تضخم تدريجيًّا فانتهى بخناق وزعيق غير لائق بسمعة المحل، فانسحبت من المحل دون انتظار لقرار طردي.

قابلتُ إبراهيم أثناء نزولي السلم، كان يحمل بين يديه شوّاية وعليها كيس فحم، فقال في دعوة متخفية: «هنسهر للصبح ونطلع

الفجرعَ البحر»، تحججت ثانيةً، لكنه قاطعني: «بعتنا نجيب خوص وزينة وهنعمل طيارة». فانضممتُ. فقد كُنتُ أحلم بتكوين طائرة ورقية كبيرة، وتشكيلها بالزينة الملونة، وأن أطلقها في الهواء ولا أُنزلها أبدًا.

حملت معه الفحم، وكيس اللحم المُتبل، وانصهرت في الجمع. كانت لنا غرفة صغيرة بنيناها فوق السطوح، وكانت عادة متكررة في أغلب البيوت القديمة، حيث إن جميع السكان من عائلة واحدة، ولا تزال موجودة في البيوت التي لم يصل إليها التجريف العمراني الحادث في جميع أحياء الإسكندرية.

كان هذا التجمع مألوفًا بالنسبة لي، وكنت لا أزال أُنصَح بالبُعد عنه، وعن تلك الحياة المهترئة، التي لا أحد يعرف فيها عن الآخر سوى أقل القليل. دخلت الغرفة فوجدت أحدهم يجلس مُنزويًا في ركن السرير، قابضًا، في يده، على موبايل نوكيا ٦٦٠٠، ارتميت بجواره لحين تجهيز الشوّاية، فلمحت الفيلم الذي يبحلق بعينيه فيه، وكان هذا الصديق يملك صورة كليشيه لمُدمني أفلام السِّكس؛ جسد ممصُوص، نظارة سميكة، هَزلٌ عامّ، كان شخصًا عديم الفائدة. لاحظني، فركن الموبايل وأخرج علبة السجائر، وشرع في لف عدة سجائر حشيش تكفي ليومنا التالي. فبدت لي وكأنها الفائدة الوحيدة له.

أشعل أسعد الفحم، وارتكن أمامه ليسوّي اللحمة، فانفردتُ بإبراهيم مستفهمًا: «إنت عارف إنهم بيقولوا عليك حشّاش، وقالب البيت مَحششة؟»، جاءني الرد بليغًا مُفحمًا، فقط احتجتُ عدة ثوانٍ لأفهم مقصده: «حلة اللحمة اللي بيبعتوها كل أول

شهر، قول لهم ما يبعتوهاش». كان هذا هو إبراهيم؛ يُجيد إنهاء الحوار الذي لا يعجبه، ويجيد صياغة جُمل رنانة تجذب الانتباه، وتُشتت الأفكار.

جاء الخوص وورق الزينة، وشاركت لأول مرة في حياتي في صنع طائرة ورقية، فقد بدأت تندثر تلك العادة الجميلة. بدأنا بربط عيدان الخوص مزدوجة على شكل مسدس، حفاظًا على متانة واتزان الطائرة، وبعد التأكد من متانتها، قطعنا ورق الزينة مثلثات وألصقناها بالهيكل الخوص، وقام أحدنا بضبط ميزان الطائرة، وأوصل الميزان بخيط طويل ملفوف حول عصا، وسهرنا طوال الليل نربط ورق الزينة الصغير بذيل الطائرة. كانت الطائرة محاولة منّا للتصالح مع الحياة، وعرض الأحلام على السماء، فكانت ضخمة جدًّا، طولها وعرضها أكثر من ثلاثة أمتار، بينما امتد الذيل حتى بلغ خمسة عشر مترًا، مترٌ واحدٌ لحلم كل واحدٍ منّا.

قبل أذان الفجر كنا في الطريق إلى البحر في شاطئ «أبو هيف» بمحمد نجيب، وقبل أول خيوط النهار، كنا نسبح في البحر بين الضحك والهزار، واللعب بالكرة، وسباقات سرعة السباحة. وبعد أن عمَّ ضوء النهار خرجنا لنُطيّر الطائرة. أمسكها أحدنا ورفعها قدر المستطاع، بينما كان الآخر يجري بالخيط إلى أن تطير وتثبت في الهواء، فيشرع في فك الخيط تدريجيًّا، فتعلو الطائرة في السماء، ويتقلص حجمها في أعيننا، إلى أن فرغ الخيط، فبدت وكأنها نجمة ربانية في وضح النهار. ربطنا نهاية الخيط في مركب مقلوب على الشاطئ، وجلسنا نتأمل الطائرة ونستريح.

عاد أحدنا من عند مدخل الشاطئ، بدا وكأنه انسلّ ونحن نُطيّر الطائرة، وجاء حاملًا في يده كيسًا أسود، جلس في مركز الجمع، ومع إشعال إحدى سجائر الحشيش المُعدّة سلفًا، أخرج زجاجات البيرة، ودارت الحلقة بين الماء والهواء. انزعجت قليلًا، حيث هلّ طيف أبي، فوقفت أحدق في جزيرة الذهب، التي كانت تلمع على مسافة ليست بالقليلة من الشاطئ، وتذكرتُ أن أبي قال لي إنه كان يسبح إليها ليصطاد في أيام شبابه، لكنني لم أجِد السباحة بالدرجة التي تسمح لي بالوصول إلى تلك الجزيرة المنشودة. زاد انزعاجي وقلقي لأنني كنت ما زلت أحتفظ حينها بفلسفتي الساذجة عن الثواب والعقاب، كأن تُزيح قشرة موزة في طريقك إلى الامتحان، فتحصل على درجة عالية. أو أن نُمسي ونُصبح بين الحشيش والبيرة، فننزل البحر خمسة عشر شخصًا، ونخرج منه أربعة عشر، ثلاثة عشر، أيًّا كان، المهم أن مصيبة ستحدث، فبدأت أنتظرها.

نزلنا البحر مرة أخرى، واستمر اللعب، وقبل تَسيُّد قرص الشمس قلب السماء، كنا نستعد إلى العودة. بدَّل كل منا ملابسه المُبتلة، وشرعنا في لمّ خيط الطائرة، ثم نشب خلاف من لا شيء، كخلافات السكارى، حول مَن سيحمل الطائرة في طريق العودة. احتدّ الخلاف، فتكفلت بحملها، وكنت أطمع في الاحتفاظ بها، لكنهم لم يلتفتوا إليّ. بدونا كفاقدي الوعي لقلة النوم، وبدأ زعيق حول تكرار مثل تلك المشادات في كل مرة، وأمسك أحدنا في رقبة الآخر، وسب وشتائم من هنا ومن هناك، وكان البعض نائمًا على الرمل من شدة التعب.

اندفع أسعد باعتباره كبيرنا ليُنهي ذلك الخلاف، وقد بدا مغرمًا بحالة سُكْره المفتعلة، أخرج مطواته، قبض على الخيط بيده، وفي لمحة كالوميض قطع الخيط نصفين، أحدهما على الرمال، بينما الآخر يسبح مع الطائرة في الفضاء. صُعقنا، ودبّت فينا إفاقة جماعية، ننظر لبعضنا البعض في ذهول، ونحدق في الطائرة التي ظلت تتباعد إلى أن اختفتْ تمامًا وكأنها ابتُلِعَتْ.

الفصل الرابع

تفريغ

مرّت أربع سنوات منذ آخر مرة رأيتُ مفتاحًا في قفل تلك الدرفة، هل تمّ إضافة شيء جديد؟ أم أنها كانت مجرد استعادة لبعض الذكريات؟

كان اكتشاف تلك الخزانة سببًا كي تتبدل حياتي. وكان أبي هو مَن دلّني عليها دونما قصد، بل يبدو أنه قد جاهد لإخفائها عني.

أذكر ذلك اليوم، ولن أبذل جهدًا في استعادة تفاصيله، بداية من العودة من الجامعة، إلى تحضير الغداء، الذي كان صينية سردين بالبطاطس، ورغم أني من مُحبي الأسماك عامة إلا أني لا أفضل السردين والسمك البلطي، وأؤيد أبي حين نعتهم بأسماك الغلابة، ويقصد هنا الغلب في العقل، حيث إنه لا يميز حلاوة السمك، أو كما قال «بياكل وخلاص»؛ لذلك أكلت أقل القليل، بينما أجهز هو على الصينية كلها، ودخل غرفته ليستريح، لينزل الدكان بعد العشاء.

وبينما كنت نائمًا أمام التلفزيون، سمعت صوته كالمبحوح ينازع، وينادي عليّ، دخلت على الفور وأضأت نور الغرفة، فوجدته جالسًا على حافة السرير، ساندًا يديه خلف ظهره ليُثبت جذعه، بدا عاجزًا عن الحركة، رافعًا رأسه، محدقًا وكأنه يتأمل

سقف الغرفة. كان وضعه هذا لتسهيل التنفس، فقد كان يُدخل نفَسه ويُخرجه بصعوبة بالغة، جاء صوت الهواء وهو يعبر بداخله كفحيح الأفاعي، ومحشرجًا كالشخير وهو يخرج منه. وجهه أزرق قاتم، وكأن جسده فقدَ كلّ دمه.

دخلتُ مسرعًا، وبتلقائية فتحتُ شبّاك الغرفة، وأمسكتُ الجرنال للتهوية أمام فتحة فمه دافعًا الهواء للدخول لتيسير عملية التنفس.

كانت المرة الأولى التي أراه فيها يمرض، ولم أكن أدري طبيعة هذا المرض، تصورت أن هذه الأعراض هي سكرات الموت، وأنني بعد دقائق سأفقده كما فقدتُ أمي. كان الأمر مرعبًا، والخضة شلتني، وسحبتْه من سيّئ إلى أسوأ حتى أوصلتْه إلى الموت.

وفي صمتٍ مُوتر، مُطعم بصوت الأنفاس والنحيب، دار الحوار بيننا خلال تلك النوبة بلغة الإشارة، فلم يكن قادرًا على الكلام، وكنت أُقلده دون وعي، أشار إلى سلسلة مفاتيحه، فناولته إياها، أمسك مفتاحين منها، وأعطاهما لي، مشيرًا إلى الدرج الذي فوق الخزانة، جربتُ أحد المفتاحين فسمعتُ تكة الفتح، سحبتُ الدرج، فعصلج معي، شددتُه بقوة فخرج بالكامل من الوحدة ساقطًا على الأرض، تناثرت محتوياته؛ أوراق وعلبة دواء. أشار أبي إلى الدواء، فأخرجتُ حباية من العلبة، فتناولها تحت لسانه، وظللتُ في عملية التهوية حتى هدأت أنفاسه.

نزلتُ على الأرض، لملمتُ الأوراق، واتضح أنها عقود وفواتير، أغلب الظن تخص الدكان، فوضعتهم داخل الدرج، وأمسكته لأثبته

داخل الوحدة. وبينما أوازنه لأدخله في الفراغ المخصص له في الوحدة، لمحت شيئًا داخل الخزانة يشعّ لمعانًا عبر هذا الفراغ.

أدخلتُ الـدرج، وعدتُ لمتابعة حالة أبي، ولمعرفة سبب ما حدث، ومَن وصف له هذا الدواء، فقال إنه تعب في الدكان، وصيدلي مجاور وصف له هذا الدواء في حال تكرار تلك النوبة، وأن الأمر ليس خطيرًا، ولا يوجد داعٍ للقلق.

كان هذا هو أبي باختصار شديد؛ كل شيء ليس خطيرًا، ودائمًا لا يوجد داعٍ للقلق. لم أحاول إجهاده، وخرجت أحضر له الماء كما طلب. فور عودتي وجدته يتسنّد على حافة السرير والسرّاحة لإقفال الدرج بالمفتاح، ويده الأخرى تتأكد أن درفة الخزانة أيضًا موصدة.

ناولته الماء، وساعدته ليُريح ظهره على السرير وخرجت.

لم أتعجب من موقفه تجاه المرض، لكني تعجبتُ من كونه أخفى الدواء في درج مغلق بمفتاح، وكأنه يؤكد شكوكي حول عالمه الخاص. كما تعجبتُ من ذلك الشيء اللامع الذي يداريه عني في خزانته.

تلصصتُ عليه حتى تمكنتُ من عمل نسخة من مفتاحَي الدرج والخزنة، وفي مساء ذلك اليوم، بعد ذهابه إلى الدكان، دخلتُ الغرفة بعقلٍ قلق، وتخوف من طابع اللص الذي سكنني، وتشكك في نزاهة ما أنا مُقبل على القيام به، إلا أن الفضول هو ما ساقني إلى هنا، ولن أتراجع بعد أن حصلتُ على نسخة المفتاحَيْن.

فتحتُ الدرج أولا، لم أجد علبة الدواء، فبدا لي أنه أخذها معه تحسبًا لوقوع نوبة المرض، ووجدتُ الأوراق ذاتها؛ عقد مِلكية الشقة، بعد هدم البيت، وعقد إيجار قديم للدكان، وفواتير كهرباء وضرائب.

أدخلتُ المفتاح الآخر في قفل درفة الخزنة، فاعترضه شيء ما، فخفتُ أن تكون النسخة ليست سليمة، بللت المفتاح بطرف لساني، وضغطتُ عليه أكثر، فلم ينزلق بسهولة ولكن دخل جزء صغير منه، ضغط بعزم وقوة أكثر إلى أن بات المفتاح في القفل، لكنه لم يلف. خفتُ أن ينكسر داخل القفل، فينكشف ما فعلته، فتعاملتُ معه بحرص، وسكبتُ قليلًا من زيت الطعام على القفل لتليينه لتسهيل الفتح. كانت عملية عسيرة تُؤكد أن الدرفة لم تُفتح منذ زمن ليس بالقليل.

بمجرد فتح الدرفة، حتى وجدتُ عدة دفاتر مغلفة بأوراق الزينة اللامعة العاكسة للضوء، متراصة فوق بعضها البعض. تبين لي بعد ذلك أنها ألبومات صور، وأوراق مطوية داخل أجندة مكتب سوداء باسم شركة الأحمدي الكويتية لألعاب الأطفال، بتاريخ ١٩٨٧.

قلّبت في ألبومات الصور، كانت صورًا لتاريخ العائلة، مُرتبة زمنيًّا لحياة أبي، لانتصاراته وانكساراته، ألبوم لصوره في الجامعة بتاريخ السبعينيات، وكانت هيئته على موضة تلك الفترة؛ شعره كثيف ويرتدي بنطلونات شارلستون. وألبوم الأصدقاء، أغلب صوره في الثمانينيات، تعرفتُ على بعض منهم، رغم شِبه القطيعة التي حدثت بينهم، فقد كانوا ما زالوا ساكنين في بيوت مجاورة.

وألبوم لصوره في الكويت، وألبوم زفافه، وألبوم شهر العسل، ولم أجد ألبومًا يوثق طفولتي معه أو أعياد ميلادي التي لم يكُن يحتفل بها أحد. وكأنني منذ جئتُ إلى دنياه، لم يعد هناك شيء يستحق تسجيله والاحتفاظ به.

فتحتُ الأجندة، وقلبت في الأوراق المطوية، بدا ورق الأجندة أصفر عتيقًا، وكان يحوي كتابات قليلة، بخط أبي الذي كان يشبه خطّي غير الجيد فيصعب قراءته. كانت الكتابات مؤرخة من ١٩٨٦ إلى ١٩٩١، وتلك تقريبا فترة عمله في الكويت. أما الأوراق المطوية فقد كانت أحسن حالًا، ومن التاريخ عرفت أنها خاطرة واحدة فقط، بتاريخ ٢٩ إبريل ٢٠١٤، وكان هذا تاريخ عيد ميلادي العشرين الذي كان قد مرّ عليه حينها تسعة أشهر.

بالطبع لم أكن أعرف أن أبي قد كتب شيئًا من قبل، كما لم أعرف عنه شيئًا مطلقًا، غير فُتات تصون علاقتنا، ولا أظنني رأيته من قبل يقرأ شيئًا، باستثناء القرآن والتقليب في الجرائد اليومية. إلا أن وجود تاريخ على بداية الورقة يتوافق مع ذِكرى يوم ميلادي العشرين كان كافيًا لجذبي لقراءة ما كتبه.

٢٩ إبريل ٢٠١٤

بعد إحدى حوادث الانتحار الأليمة، تلك الحوادث التي كثُرت، أو تمّ تأطيرها في تلك المساحة المُصدرة لنا من العالم، قرأت مقالًا صحفيًّا يعجّ ويفيض بالاتهامات للسلطة الأبوية باعتبارها السبب الرئيس لحالات الانتحار، التي يصعب تحديد السبب الأوحد لوقوعها، ثم تتبعت خط مقالات الكاتب بشكل يومي، ورأيت السلطة الأبوية،

بعد أن تم إعادة هيكلتها، وتعريفها في أُطر وفلسفات مختلفة باعتبارها الشر المطلق في هذا العالم.

مر ذلك رفقة هوجة رومانسية من معارضي النسل، واستمرار بني الإنسان، ومناهضي فناء البشرية، واعتبار أي حس ورغبة في الأمومة أو الأبوة رغبة أنانية، شيطانية، يجب التخلص منها، فلا يوجد أي معنى للإتيان بفرد جديد يُعاني في هذا العالم. واقتراف ذنب كهذا لن يغفره لك أحد وعلى رأسهم المولود.

كان هذا وذاك بالتزامن مع الذكرى العشرين لميلاد ابني، ابني الوحيد الذي شبّ، بينما صرتُ كهلًا. قاربت على الموت، ونحن غريبان، يتتبع كل منا مُضيّ الآخر في عمره دون تلاحم حقيقي، لم أرَ نفسي في طفولته، ولم أرَ طباعي في شبابه، ولا أشعر بأي أثرٍ لي في حياته، ولا أدري هل ذلك اللاشيء هو ما يُكنّه لي حقًّا؟ وهل يتوافق معي في رؤيتي عن سنواتي المهدرة الفاشلة؟ أم يُكنُّ شيئًا في باطنه ولا يجد ما يتطلب البوح به؟

لم يكُن همّي أن أغرس شيئًا محددًا فيه، ولن أطمح لذلك أبدًا، فليكُن ما يشاء، وليبعد عني كيفما راقَ له، كل ما يشغلني ألا يتلاقى معي في السنوات المهدرة، ألا يصدق على فشلي، كل ما أحتاجه منه أن ينتزعني من نفسي، يُعيد تشكيلي، يُرتب أوراقي وأيامي المبعثرة، يصل بي إلى برٍّ آمِن، لا أكون فيه كما أراني، مُبددًا مهزومًا في حياتي التي أخفيتها عنه خوفًا من حكمٍ يصدُر منه، عمدًا أو سهوًا، فيُصدق على كل الأحكام السابقة.

فقد تشكلت أُبوّتي في صراع حقيقي، صراع آلَ لنهاية سعيدة، آلَ لانتصار لم يعلم به غيري؛ إذ لم أخبر أحدًا بذلك الصراع من الأساس.

كان ذلك بعد ثلاث سنوات من الزواج، وفي أعتاب الرابعة، ومرور تلك المدة دون خلفة أو حمل لم يكُن بالأمر المألوف. وكان المعتاد أن تسعى الزوجة إلى البحث فيما يخصها أولًا، وبعد أن تنتهي من محاولاتها وتتأكد من سلامتها، يتم الارتكان إلى القدَر ليُعجل بالخبر السار، فلما شعرتُ بتأخر القدَر، جاء دوري خفية، شعرتُ بفوران وانتفاضة في جسدي حينما تملّكني الظن بأن العيب وتأخر الحمل قد يكون بسببي، فأنا لم أتخلص من نشأتي الذكورية، كما أنني كنت وما زلت أخشى المواجهات، وأرى فيها خصامًا وفراقًا يهون أمامهما الصمت والكتمان.

تتبعت مسار أحد المعارف حيث كان يُتابع حالته مع دكتور متخصص لأمراض الذكورة. استأذنت من العمل، وذهبت للكشف، طلب الدكتور على إثر كشفه أشعة وتحاليل، وننتظر يومين، مرّ الانتظار والحيرة بين المرض المُزمن، والعلاج المُمكن، كم سيحتاج من الوقت؟ ومن الفلوس؟ التي إن كثُرت بالتأكيد فسيُكشف سِري، فقد كنت عائدًا من الكويت شبه مُفلس، أعاني ماديًّا ونفسيًّا بعد الأَسْر لأكثر من تسعين يومًا. كم تمنيت أن تكون حالتي النفسية السيئة هي سبب تلك الأزمة، وألا أكون مصابًا بمرض عضوي.

ذهبت بعد يومين لمتابعة نتيجة التحاليل، فجاء كلام الدكتور مُرتبًا في نقاط، كما لو أن الحالة ليست عصية، وكثيرًا ما ورد عليه مثلها. أكّد أن الشفاء يتطلب إجراء جراحة في الخصيتين، فقد كانت الحيوانات المنوية تموت قبل خروجها. سألته عن موعد إجراء الجراحة، فوصف لي دواءً لمدة أسبوعين، وبعدهما نُجري العملية.

لم أتفهم كيف للبذور الطيبة أن تصير معيبة، وتموت قبل وصولها إلى الأرض الصالحة!

واظبت على الدواء كمُسكن لآلام الظهر، وقلتُ لزوجتي إنني سأخضع لعملية فتاق بسيطة، ولا أريد أن يعرف أو يأتي أحد معي، أبدَت بعض الاعتراض، والرغبة في أن تكون بجواري، لكنها انصاعت في الأخير إلى رغبتي.

أُجريت الجراحة، ولم أشعر بشيء، فقد رفضتُ حينها التخدير النصفي، فطبقًا لكلام الدكتور سأكون واعيًا بما يحدث حولي، وإن كنت لن أشعر بأي ألم أثناء الجراحة، لكني سأرى الحركة، والمشارط، والدم، وأسمع حديثهم عن الفتح، والقطع، والتقفيل، فمنعًا لأي توتر وهياج للأعصاب اخترت التخدير الكلي. أقمتُ نهارًا واحدًا في المستشفى، إلى أن أفقت تمامًا، ثم عُدتُ إلى بيتي شخصًا آخر بقوة وعنفوان. لم يَحدّني سوى تأكيد الدكتور بالامتناع التام عن ممارسة العلاقة الجنسية، وعدم الاقتراب من الخصيتين لمدة عشرة أيام. فكانت عملية الفتاق عِلةً مناسبةً إلى أن عادت الحياة لما كانت عليه، وجاء التحليل الأول بعد أسبوعين ليعلن الانتصار الأول والأخير، خرجت البذور حيةً، صالحةً، تنتظر غرسها في الأرض.

مرّ عام ثم جاء ابني الذي يتم اليوم عامَه العشرين، ورحلت أمه في الحين نفسه.

عشتُ عقدين، عشرين سنة، مرت طفولته وصِباه، صار شابًّا، وأنا لا أذكر لنا سوى جلستين؛ الأولى حينما تلقيت اتصالًا من مَدرسته الإعدادية يخبروني فيه بأنه كثير الغياب وأن درجاته ضعيفة جدًّا، فقصصت له حكايات من الشرق

والغرب، من ماضيَّ البعيد، ومن غربتي في الكويت، وشبّكتُ الحكايات لتصبّ نهايتها في حكمة واحدة؛ ألا يكون تابعًا لأحد، ويعيش استقلاله كيفما شاء. أما الجلسة الثانية، فقد كانت قبل هدم البيت، حينما حاولت أن أقحمه في حروبي الفاشلة، باعتباره شريكي الوحيد ووريثي في هذا البيت، لكن الجلسة فُضّت قبل أن تنعقد، ولا أتمنى أن يذكر شيئًا منها.

لم يكُن الأمر هينًا، كم كنت ممزقًا بينه وبين نفسي!

طوال سنواتي تمزقتُ بين واجبي المادي تجاهه، وبين احتياجه النفسي لي كأب، تفتَّتت المراعاة التي يجب أن يشعر بها، ولم أتقبل أبدًا ما صدرتُه له، بدءًا من أبوة معنوية لم تكتمل، إلى أبوة مادية كالفُتات. ضاع كل شيء في سوق العمل، العمل الذي كنا نحارب لأجله في السبعينيات والثمانينيات، العمل الذي سحق كل شيء، لا بسبع ولا بعشر ساعات، بل بأربع عشرة ساعة يوميًّا، بلا إجازة، بلا سند، بلا أخوة، بل بأخوة قيدوني كغريق في بحر من الغش والديون. أربع عشرة ساعة، فلم يكُن لي وقت لممارسة أي أبوة، أو أي سلطة أبوية كتلك التي يحاربونها الآن. أربع عشرة ساعة تمر وتجر معها سنواتي وعمري دون التمتع بثمرة انتصاري الوحيد في حياتي.

دخلتُ فترة انهيار من كل جانب، كان الانهيار دليلًا على أنني لم أكُن مجنونًا، لم أكُن أُصارع طواحين الهواء، كنتُ أعيش صراعًا حقيقيًّا، لم أُعلن عنه خوفًا من توابعه، وسنة تلو الأخرى يقترب الموت، ويزداد الخوف. كثرَت الديون، وساءتْ حالتي الصحية بسبب الإجهاد البدني والنفسي، والتدخين، والشاي،

والقهوة، إلى أن صار جسدي كبئرٍ فسدت مياهها. قيدني المرض كما لم أُقيد من قبل.

خفتُ من المرض، كي لا يُلزمني البيت، فأضطر لمواجهة حقيقة فشلي أثناء خلوتي بابني، الذي أجهله ويجهلني، لكن المرض على أي حال منحني فرصة لمحاولة جديدة، لإعادة النظر في تلك المسافة الشاسعة التي تفصلني عن ابني؛ الشاب الذي تبدّلت حاله وصار أبي.

سأحكي له عن ميلاده، الذي لم يكُن يسيرًا، وكان سرًّا لا يعلمه أحد، وأتمنى أن يكون ذلك الكشف كافيًا لإذابة جزء من الجليد المتجمّد بيننا، وأن يكون لي معه تقاطعات أخرى، لا أتذكرها، أو أن تكون مرت عليَّ دون توقف، لكنها تركت فيه شيئًا يشفع لي. فأنا أجهله تمامًا، فقد كنت مكبّلًا لا أُدرك ما يحدث حولي، كنت كالآلة تعمل وتُنتج، ولا تشعر بما يصدُر عنها.

هاشم المأمون
غبريال ـ الإسكندرية

كانت قراءة مُربكة، لم أتفهم هل هي خاطرة أم قصة، أم خطاب مُوجّه لي في زمنٍ آخر، لكني بكيت وبللت الورق أثناء وبعد القراءة كما لم يحدث من قبل، فقد كانت كلماته فيها من الألم والأسى على ما آلت إليه حياته، ما يعاتبني على كوني ناقمًا على حالنا، عتابًا بشفقة وأسف وحنين وحب ونُصح ورغبة حقيقية في فناء عالمه الحزين، وبقائنا لنتلافى كل الإخفاقات السابقة وكل السنين المهدرة.

حاولت خلال السنوات التالية تخطّي تلك الحواجز والمصدّات التي بُنيت بيننا، دونما قصد منا، فقد بُنيت بفعل السنين والأزمات.

لكنني حتى موته ودفنه منذ أيام، لم أصل إلى نتيجة يمكن اعتباري راضيًا عنها.

فتحتُ الدرفة لاستعادة الذكريات، وتأمُّل الصور التي ظلتْ مرجعي كلما اشتقتُ إلى رؤيته. كما تملكتني رغبة مُلحة في إعادة صياغة الحكايات وترتيب الصور لمحاولة فهم ذلك التاريخ الطويل الذي آلَ بنا إلى تلك الليلة المشئومة ليلة ذبح أسعد. والإجابة عن سؤال ما حدث لي ولإبراهيم ولأسعد ولأبي من قبلنا وللعائلة من بعدنا!

قلّبتُ في محتويات الدرفة والدرج، فوجدتُ ورقة جديدة، صغيرة، مطوية، وُضِعَت فوق ألبومات الصور، بتاريخ ١٥ أكتوبر ٢٠١٧، وكان ذلك قبل ثلاثة أسابيع من يوم وفاة أبي.

١٥ أكتوبر ٢٠١٧

«كفاءة القلب ضعيفة جدًّا، ومُتوقَّع تطورات لفشل عام بوظائف الجسم»، هذا ما سمعت الطبيب المسئول عن حالتي يقوله لابني، ففهمتُ أن الموت سيأتي خلال أيام.

كنتُ أسمع تلك الكلمات وأُتابع الموت منذ أن كان يبعد عني سنوات، وظل يقترب إلى أن تحولت تلك السنوات إلى أشهُر عليّ التمتع بها، وها هي الأشهُر الآن تتحول إلى أيام، وبعد حين تتبدل الأيام إلى ساعات ثم دقائق، ثم أرى الموت وهو يحلّ بجسدي، وينتهي كل شيء.

قد ترى انعدام مهنية فيما قاله الطبيب، وقد تُشكك في مصداقية ما سمعت، لكنني كنت شاكرًا للوعي بدنوّ أجلي، فلكل منا طقوسه في مواجهة الموت. وعلَيّ أن أستعد وأتخفف من الإخفاقات السابقة.

رغم عدم معرفتي بالمعلومات والمصطلحات الطبية التي يمكن استخدامها في حالة مثل حالتي، إلا أن الطبيب، في رأيي، وُفّقَ في استخدام مصطلح «فشل عام»، لوصف حالتي، ذلك المصطلح الذي يبدو شاعريًّا، وليس علميًّا بالمرة. فبحكم الترابط بين المادي والمعنوي، والقوانين الخفية التي تحكم هذا الكون، فالفشل العام الذي أصاب أعضاء الجسد، ما هو إلا انعكاس لفشل عام آخر، فشل متراكم طوال مسار حياتي وقراراتي، تابعته يومًا بعد يوم، اخترته يومًا، وأُقحمت فيه يومًا، وارتضيت به أيامًا. قاومته حينًا، واستسلمت له أحيانًا كثيرة. والنتيجة النهائية حالة من التأثير والتأثر، بين فشل الحياة وفسادها وعطب الجسد وفشله في مداواة نفسه. فالحياة باعتبارها محطات، في كل محطة هناك عدة قرارات، فقد كانت قراراتي منقوعة في فشلٍ عامّ، ولا أُرجح أيًّا من تلك القرارات لألومه باعتباره ما قادني إلى ما أنا فيه الآن؛ أسيرُ مَرَضي، لا ألتفت إلى الموت ولا إلى الحياة، ولا يجذبني أيّ منهما لجهته، وهذا أصل الحكاية وهكذا كنتُ دائمًا؛ لا ألتفت.

ليس الأمر بالمُستساغ أن تقُص فشلك، وكأنك غير عابئ به، أن تتعرى أمام أي شخصٍ ليرى ضعفك وانكساراتك، كما كنت قبل ذلك أخشى من هدم الصورة الأسطورية للأب المكافح. لكنني حكيتُ له حينما رأيتُ الموت، حكيت له عني كما رأيتني، عن الطفولة، والمدارس الأزهرية، والجامعة، عن الحب، العمل، السفر، العائلة، الأسرة الصغيرة، عن أمه، وموتها، عن البيت... البيت الذي بناه أبي واستكملته أنا.

حكيتُ له، فربما يكون الحكي شافعًا لي، ويغفر لي البُعد غير المقصود. حكيتُ وأنا أُراهن أن التعري لن يضُر الموتى في شيء، فبعد موتك، لن ينفعك مدح الخلق أو ذمهم.

كانت خيبة الأمل في عينيه مؤلمة، لكن الانكسارات والخيبات لا تدوم طويلا، صدّقني أنا خبير بما أقول.

هـ. م.
الإسكندرية

كانت تلك الورقة مكتوبة بعد خروجه من المستشفى، حينما أكد الأطباء أن الحالة استقرت. ثم تبين لنا بعد ذلك أن الحالة تحتاج لرعاية مُركزة، ولم يكن هنالك أماكن شاغرة، فكانت تلك طريقتهم لإخراجه من المستشفى، بذلك الزعم الفاسد. وبعد ترتيب مكان بمساعدة واسطة تم احتجازه مرة أخرى بالعناية المُركزة لستة أيام حتى الوفاة.

كانت كتابته مؤلمة، كما اعتاد في كل النصوص التي قرأتها له، فقد كان الألم يبرز بمكر وبحس عالٍ من بين السطور والكلمات. كان المحزن أيضًا، تلك المقاومة للرغبة في الحكي طوال تلك السنوات، منذ بداية مرضه، منذ استشعر بشيءٍ يثور بداخله، ويأمل أن يجد مَن يسمعه.

كان حديثه في المستشفى في أيامه الأخيرة جميلًا ومُنمقًا، ورغم الإجهاد الذي كان يتخلل الحكي، إلا أنه لم يفقد أبدًا ملكته في أَسْري وجذب انتباهي.

الفصل الخامس

مرايا الذاكرة

لم أتمكن من التعامل مع حديث أبي كحديثٍ عابرٍ لإنسان على فراش الموت، ورغم أنها ليست المرة الأولى التي أُدرك فيها أنه يملك عالمًا خاصًّا، سعى دائمًا لحجبه عني، إلا أن رسم الحكاية بصوته، والتفاصيل التي لم يكتبها كان لها أثرٌ مختلفٌ عن ذلك الذي انتابني وأنا أقرأ أوراقه الخاصة، التي لم تكن كاليوميات، بل أقرب إلى تفريغ؛ محاولة لتلافي الانفجار أو الموت حسرة.

كان حديثه الذي أستعيده يشير إلى منطقة مهملة في ذاكرتي، فلم يكُن لي أي سابق اهتمام بالبيت، والدكان، والخلافات المتأججة بينه وبين أعمامي، كنتُ أظن أنني أعيش في عالمي وحدي بلا تقاطعات تُذكر مع عالم أبي. لكن حكاياته أثبتت لي أن ما عشته ما كان له أن يكون لو لم يكُن تقاطع مع أبي تقاطعًا أبديًّا.

ورغم أن ذاكرة الإنسان مشوهة وليست توثيقية، والذكريات تسقط في منطقة ما بين منسيٍ وممتزجٍ برغبات كنا نتمنى حدوثها، فتبدلها الذاكرة بما حدث بالفعل، إلاّ أنني بقدر ما تسعفني ذاكرتا الطفل والصبي عن تلك الأيام، سأحاول..

(١)

كان الزمان محددًا بعلامة تاريخية هامة، تتكرر كل أربع سنوات، نهائي كأس العالم ٢٠٠٢ بكوريا واليابان، كنا في بداية الصيف، وبالطبع لا أتذكر أين شاهدتُ المبارة، ولا أتذكر منها سوى المقاطع التي لا أمَلّ من تكرارها على اليوتيوب كلما صادفتني. لكن نُحِتَ في ذاكرتي انطباعي عن قَصة الشعر الشهيرة التي خاض بها رونالدو الظاهرة لاعب البرازيل المباراة، والتي كما أوضح بعد ذلك كانت مراوغة منه للصحافة والإعلام، ليُلهيهم عن الإصابة التي تعرض لها قبل المباراة، فما كان منه إلا أن حلق رأسه كاملة، وترك جزءًا كالهلال عند مقدمة رأسه، فتحولت القَصة إلى حديث الصحافة الأول، إلى أن صارت أهم من رونالدو نفسه، ومن المبارة كلها. ليلعب المباراة كما أراد، ويسجل هدفين، معوضًا إخفاقه في كأس العالم ١٩٩٨ في فرنسا، حينما خاض النهائي وهو يعاني من الإصابة ذاتها، والتي منعته من دعم الفريق بالقدر المطلوب.

أحببت رونالدو وفِطنته الملهمة، ومراوغته للحياة، وسلاسة اللعبة والفكرة، وبالرغم من أنه لم ينجح دائمًا في ذلك، وحالت الإصابة المزمنة بينه وبين الاستمرار في اللعب بنسق عالٍ، إلا أنني ظللتُ أتابعه وهو ينحدر من اللعب مع كبار أندية أوروبا إلى أندية البرازيل المغمورة، وكانت رؤيته بوزنه الزائد، وكرشه مُتدلية، مُحزنة، حيث كان ذلك دليلًا على إخفاق المراوغة وانتهاء المسيرة.

بعد ذلك أو قبله؛ لا أتذكر الزمان، كنت عند أقاربي في الورديان، وكانت مباراة الأهلي والزمالك، شاهدنا المباراة في الشارع

عبر تلفزيون صغير، في مشهد مشابه للمشهد الذي استُخدم في إعلانات كأس العالم ٢٠١٨ في روسيا، للتدليل على الترابط المتين بين المعدومين وكرة القدم. لم أكن حينها أُشجع فريقًا بعينه، لكن حماسة الفوز، وبعدها العوامل الوراثية، حسمت التوجّه. انتهت المبارة بفوز الأهلي ٦/ ١، وانتهت بي مشجعًا للأهلي.

ظللتُ بعد ذلك أتابع الماتشات، وتَضخّم حُبي لكرة القدم، إذ لم تَفُت عليّ فرصة للعب دون استغلالها، في شارعنا والشوارع المجاورة، والمدرسة، وملاعب الكرة التي كنا نستأجرها. لم أُهدر فرصة واحدة لكنني لم أتمكّن من مراوغة حقيقة إمكانياتي المحدودة وموهبتي الأقل من العادية، التي لم تُمكّني من اللعب سوى في دوري المدارس مُمثلًا للفصل.

بعد سنوات من المحاولات والإخفاقات سلمتُ لحقيقة فشلي في تتبُّع موهبة رونالدو، والسير في دربه، فانتقلتُ إلى ملعب آخر، لا أكف فيه عن المحاولة، ومراوغة الموهبة، بعيدًا عن صخب الملاعب والعشب الأخضر، هنا في غرفتي بين الأوراق ومرايا الذاكرة، أكتب وأمزق، أشحذ ذاكرتي للعمل على استخراج الحكايات.

(٢)

البداية دائمًا مع الله.

كنت في الثامنة من عمري، وكان ذلك في بداية الستينيات، حينما نصح إمام الزاوية، والدي بأن يُخرجني من المدارس

الحكومية ويُلحقني بمدارس الأزهر. ولا أعرف ما سبب عمل والدي بالنصيحة، والأغرب ما سِر عمله بها عليَّ أنا فقط، حيث إنه لم يُطبقها على أحدٍ من إخوتي السبعة. ربما كنت بالنسبة له فأر تجارب، أو محاولة منه للتقرب من إمام الزاوية المجاورة لبيتنا، أو دعوة غير مُعلنة منه لتقريبي من الله وإقحامي في عالم المشايخ، والأرجح بالنسبة لي ولصورة والدي في ذهني أنه نفذ النصيحة دون تفكير وبلا سبب منطقي.

مع بداية الدراسة لم أُلاحظ فرقًا بين المدرستين، المباني المخوخة ذاتها بطلائها الرمادي؛ والفصول المكدسة، لكن المناهج هي أول ما واجهت صعوبته؛ فهناك بالإضافة إلى المواد الأساسية: قرآن، وحديث، ومقررات دينية ازدادت صعوبة مع السنوات وصولًا إلى الفقه والشريعة. وباعتبار مدارس الأزهر جزءًا من نفس المنظومة، فلم ينأ الفساد عنها، إلا أنها صبغته بمسحة دينية لتبرير كل شيء. وبما أنني طالما نعتُّ نفسي آنذاك بصفة البورمجي فلم أصرف الكثير من الوقت حتى أنخرط في مجتمعي الجديد، وأصبحت لي شلة صغيرة، كبرَت تدريجيا إلى أن تمخضت عن لا شيء.

بسبب تلك الصبغة الدينية الزائفة رأيتُ الله في أول كل شيء، أول سيجارة، وأول علبة سجائر اشترينا بها امتحانًا؛ باعتبار أننا يقع علينا حكم المُضطر لأن المدرس فاسد، وأول حتة حشيش؛ باعتبار عدم ثبوت حرمانية الحشيش، وأول شريط أقراص مخدرة كثمن تزوير شهادة اجتياز السنة؛ باعتباره أهون الضررين، وهو بالتأكيد أهون من أن يطب وليّ أمر أحدنا ساكتًا حين يعلم برسوب ابنه، وأول جلسة حكيٍ، من مُدرس معتوه، يقص غرامياته لجمعٍ

من السُّذج المشدوهين وهم مُصغون له، باعتبار أن ما يحكيه جزء من آداب النكاح.

مرت تسع سنوات، تنقلتُ فيها من مرحلة إلى أخرى، إلى أن أتممت مرحلة الثانوية، تسع سنوات بنجاحٍ مستمر، وبلا تعليم، وكان ذلك فشلي الأول، وكان أمرًا يستحقّ التوقف والالتفات. بالأخص حينما وضعني التنسيق وقِطَع الحشيش وشرائط البرشام ومجلات الإباحية، التي كنا نُهديها لمُعلّمينا، في مصافّ المتفوقين، حين سمعت التهاني والمباركات لالتحاقي بكلية الهندسة – جامعة الأزهر بالقاهرة، كان يجب أن ألتفت لمحاولة تقييم ما يحدث والتدخل لتغيير مساره، لكنني كنت ما زلتُ لا أُدرك أن حكايتي قد بدأت، فلم ألتفت.

ختم حديثه، ثم طلب كوبًا من الماء، ناولته إياه، وأنا أستعجل سماع بقية الحكاية، فقد كانت المرة الأولى التي أراه فيها يتكلم عن نفسه، وكانت عيناه تلمعان، بينما يبذل مجهودًا لاستجماع ذاكرته واسترجاع الأحداث، ويسقط منه الدمع كلما نسي شيئًا، أو تذكّر أباه.

(٣)

كنتُ في بداية عقدي الثاني، في أول أيامي بالمدرسة الإعدادية، وكان ذلك بعد صيف عام ٢٠٠٦ المُطَعم بمباريات كأس العالم الأخير لرونالدو الظاهرة. لا أذكر أنني تميزت بشيء في تلك المرحلة أو في أي مرحلة أخرى، على عكس ما كان

يتبادر لي في أعين مَن حولي. لم تربطني في تلك الفترة علاقة أسرية مثلما رأيتُها في أُسر زملائي. لم يكن هناك شيء مميز إلا بدايات المدرسة الجديدة، التي تتبعتها بقدر من التخوف والريبة، فلم أجد فيها التدليل الذي وجدته قبل ذلك في مدرستي الابتدائية، إلا أنني تأقلمتُ مع المكان الجديد، واعتدتُ على التفاعل مع كل ما يحدث حولي بانسيابية الراشدين. وتدريجيًّا اعتمدتُ على شبكة أصدقائي الجدد التي بدأت تتشكّل حولي، إلى أن تغلبتُ بها على علاقاتي العائلية المصطنعة.

كان أسوأ ما أمرّ به في تلك المرحلة، والذي لم أتقبله حتى يومنا هذا، هو الاستيقاظ المبكر. كنت أقوم من سريري معدوم الهمة، بالكاد أُعد شنطتي، وآخذ المصروف الذي تركه أبي وأغادر البيت. أسلك طريقًا حافظتُ عليه طيلة سنوات الدراسة، أقوم خلاله بلَم الأصدقاء، واحدًا تلو الآخر، كلٌّ من أمام بيته، لنصل إلى المدرسة كعصابة آتية من رحم المدينة، مخضبة بدماء المعارك وسواد الشوارع، تسعى إلى التمتع بالحياة بإضافة مسحة من الإثارة على جمودها ورتابتها.

تبدأ الرحلة من عند بيتنا، المختفي في أحد أزقة شارع محمد فريد، المتفرع من شارع القاهرة، بسيدي بِشر قِبلي السكة الحديد، ثم أزعق على أحمد منصور عند ناصية الشارع، ويتبعه مصطفى سالم، الذي يجاور بيته السوق، فننحدر يسارًا عبر أحد الشوارع الجانبية لنتفادى زحام السوق، الذي يدب فيه النشاط من السادسة صباحًا، وتبدأ خناقات بين البائعين وبعضهم البعض، والزبائن والبائعين، والبائعين ورجال الحي في دوريات الإزالة بحثًا

عن الإتاوة، وصولًا إلى ساعة الذروة التي نواجهها آسفين في طريق العودة، ويبلغ الحد منتهاه في أيام الشتاء حينما يتحول الطريق إلى معجنة يصعب الخوض فيها، بسبب بِرَك مياه المطر، الناتجة عن كون الشارع شبه رملي غير ممهّد، متعدد النُّقر، لهذا كله فقد ظل شارع القاهرة، هو أسوأ شارع مشيت فيه طوال حياتي.

يصحبنا حسين السيد عند شارع سيف، ويتبعه علي الشريف قبل وصولنا إلى آخره، وأخيرا كريم خليل الذي يطل بيته على محطة قطار سيدي بِشر، والذي ينتمي إلى طبقة اجتماعية ومادية مختلفة عن طبقتنا جميعًا. يوجد أسفل بيته دكان صغير لبيع الهريسة وبلح الشام، كنا نقف أمامه نبحلق في الصواني منتظرين نزول كريم، يتحسس كل منا ما في جيبه، ونقرر توفيره لباقي اليوم، على أن نكتفي بالنظرات. لكننا في واقع الأمر، حاولنا أكثر من مرة تغفيل صاحب المحل، وسرقة بعض قِطَع الهريسة، أو أصابع بلح الشام، إلا أن كريم طالما وقف لنا كصول الحكومة، بحجة أن الرجل إذا اكتشف الأمر، فسيفضحه عند أهله. لكن ذلك لم يمنعنا في بعض الأحيان من تغفيل صاحب المحل وكريم في آنٍ واحد. كما أذكر حينما مرت أستاذة علياء حافظ مُدرسة اللغة الإنجليزية، والتي كانت تسكن في الجهة المقابلة لبيت كريم، ورأتنا ونحن نسحب قِطَع الحلوى من الصواني في غياب صاحب الدكان.

فور أن ينضم إلينا كريم، ويكتمل الجمع، نعبر محطة القطار قفزًا على القضبان، ومنها إلى مدرسة علي جاد، التي تقع أمام مبنى حي المنتزه، بينهما جنينة صغيرة لا تكفي للعب الكرة، وبجوار مبنى الحي مقهى التجارية الذي شهد الكثير من تطورات حياتي؛ بداية

من اللمة حول رُقعة الدومينو وتدخين السجائر والشيشة، وصولًا إلى النقاشات الفكرية والثقافية.

نمُر إلى ساحة المدرسة، حيث يُقام طابور الصباح، نقف في خمول، ولا مبالاة، ونتعمد الاختباء وسط الصفوف كي لا يرانا أحد ويوبّخنا لسكوتنا، ظنًّا منهم أن الحركات المخبولة التي يقومون بها كفيلة لإفاقة هؤلاء النيام، وستساعدهم على التعامل مع الهباب المُنصَب فوق أدمغتهم طوال اليوم. ورغم أنهم لا يُجيدون التعامل معنا وإدارة احتياجاتنا إلا أننا كنا نخشاهم لصِلتهم المباشرة بأهالينا؛ أي بدوائر صُنع قراراتنا في تلك المرحلة.

بتوالي الأيام واختلاف طبائع الأمور، صِرنا نحدد بدقة أكثر متى ندخل ونخرج من المدرسة، متى تكون المدرسة مشدودة من المدير والناظر، ومتى تكون سداح مداح، كلٌّ يفعل ما يحلو له. كنا نخرج خلال اليوم الدراسي عبر السور الخلفي للمدرسة، آملين ألا يرانا أحد من العُمال أو المدرسين، يرفع كل منا الآخر، وإن أردنا العودة، تكون عبر نفس الطريق. كنا نتجول في محيط المدرسة، إلى أن عرفنا قعدة المقهى، فأصبحنا نقضي فيها أحيانا اليوم كله، بدلًا من نصف ساعة الطابور، أو الحصص التافهة، فنشاهد ماتشات الدوري الإنجليزي وجولات المصارعة الحرة، وفي أحيان أخرى، نضطر لدخول المدرسة، مثل المرات التي ترانا فيه الأستاذة علياء، والتي كانت تتبعنا بأسئلة ونظرات الشك: «بتعملوا إيه برة المدرسة؟»، «مش جوة المدرسة ليه منك له؟»، وتحاول أن تمارس سلطتها، وأن تبدو خبيرة في التعامل مع أمثالنا، إلا أنها توقفت مع الوقت عن الحديث معنا خارج الفصل، لأننا كنا نبادل

نظراتها المتشككة بنظرات غاشمة من نوع آخر؛ مؤسفة لقلة خبرتنا فأخجلها ذلك، فأغربت عنا تمامًا.

بدا ظاهريًّا أن نفورنا بسبب العشوائية التي تُدار بها المدرسة، لكننا كنا نملك تطلعات أخرى، تتناسب مع مرحلتنا العمرية، كالرغبة المُلحة في خوض علاقات عابرة مع فتيات مدرسة البنات، أو التمتع بالتلصص ومتابعة العابرين والعابرات في الشارع أمام المقهى، والتدخين خفية في المدرسة، لإضافة عنصر التحدي والرفض على أفعالنا العادية. ولما لم تكُن المدرسة تلبي أيًّا من تلك الرغبات، فعزفنا عنها، إلا من حضور بعض الحصص المتفرقة، وبالأخص حصص الأستاذة علياء التي كانت أول امرأة يربطنا بها حسّ عاطفي جميل.

كانت علياء حديثة التخرج، تتسم بسذاجة مهما حاولت تقمص روح الجدية، عاجزة عن التعامل مع الطُّلاب، فقط يُساعدها على تخطّي ذلك العجز علاقاتها بالمدرسين القدامى، الذين يحاولون التقرب منها، والتودد إليها، عن طريق ضرب طالب أو سب آخر، وإن بدا الأمر في ظاهره لحفظ النظام داخل المدرسة. وكان أكثر مَن يفعل ذلك حسن صقر؛ مُدرس اللغة العربية، بجسمه الهائل، يقف دائمًا بالقرب من فصلها، منتهزًا الفُرص لإقحام نفسه في أي سياق كان. إلا أنها اكتسبت مع مرور السنوات خبرة في التعامل مع تلك المرحلة العمرية، بشكل مختلف عن باقي المدرسين، وكنا نخجل من أن نقابل تعاملها الهادئ بفظاظة المراهقين. وكفّت مع الوقت عن إدخال أي طرف آخر في علاقتها بنا، خوفًا من السمعة التي ستُصاحب تلك التصرفات، باعتبارها

«بنت مايعة، جايّة تتدلّع، ومش بتاعة شغل». لكنها كانت الأقرب إلينا، بعد سنتين كانت علاقتنا بها أقرب إلى الأخوة، رغم أنها قبل ذلك كانت مغايرة تمامًا. فقد كنا في البدء نتعامل مع حصتها باعتبارها فيلمًا سينمائيًّا، نتابع تحركاتها، نتأمل اهتزاز جسدها أثناء الكتابة على السبورة، وشعرها الناعم ينساب على ظهرها، لكنها لم تستمر في ذلك كثيرًا، فعملت بنصيحة زملائها وأخفت شعرها تحت الحجاب، إلا أننا لم نُغير نظراتنا لها واستمرت مَطمعًا لكل الطلاب، تُصاحبهم في خيالاتهم في المدرسة وفي البيت، كلٌّ منهم يتأملها ويتخيلها كيفما يحلو له، والبعض لم يكن ينتظر العودة إلى البيت ليُخمد ثورته، فقد كان بعضهم يستأذن في منتصف الحصة، وبالكاد ترى شيئًا صغيرًا يبرز من أجسادهم، يهربون إلى الحمّامات بخيالاتهم النشطة، فيتعبأ الحمّام بروائح سوائلهم اللزجة، بعد أن تهدأ أعصابهم وترتخي عضلاتهم، فيعودون إلى الواقع مرة أخرى، وإلى الفصل فتكون قد انصرفت أو على وشك الانصراف، فيتتبعونها بانعدام رغبة، وكأنها لم تكن معهم قبل دقائق في لحظة ثائرة كالحلم.

(٤)

بعكس المدرسة الإعدادية، التي شهدت سنواتها الكثير من الأحداث، لم أعُد أذكر عن مدرستي الابتدائية سوى الهيئة الخارجية لمَبناها، الذي كنت أمر أمامه من حين إلى آخر، ثم أعاد لي عقلي الباطن بعضًا من تفاصيلها عبر منطقة تتقاطع مع أبي.

رأيتني في مكان أشبه بفصلي في مدرستي الابتدائية، وتجلس بجواري إحدى زميلاتي، وعدد من الأشباح الآخرين يشغلون المكان. بينما يقف مُدرس اللغة العربية أمامنا يتكلم بصوت غير مسموع.

تذكرت ذلك المدرس، وحُب الطلاب له، لأنه كان ينظم لهم رحلات إلى قصر المنتزه، بتكاليف رمزية، بينما كان يعطي لهم دروسًا خصوصية بضعف المبلغ المتعارف عليه من أي مُدرس آخر، وتذكرت حين سخر مني لأني كنت أصلي واضعًا يدي اليُسرى فوق اليُمنى وليس العكس.

سمعتُ طَرْقًا على الباب، فأمرني الأستاذ بفتحه، فوجدت الأخت الكبرى لزميلتي، تمتطي ثورًا ذا قرنين كبيرين يُعيقان دخوله من الباب.

كانت صديقتي ولا تزال أجمل من أختها، ورُبما الصغار دائمًا أجمل؛ لجهلهم ولسذاجتهم. وكنت مثلها، أصغر حفيد في العائلة، واستمر بي الحال، حتى أتممت الشهادة الابتدائية، أنال من كل صنوف التدليل والدلع، وأتمتع بالدفء في ثوب العائلة الكبيرة، وأفخر بها، فقد كنا.. ولا يزالون هم يفخرون بكوننا عائلة كبيرة، مُقارنة بعائلات المدينة الصغيرة، إذ نادرًا ما تجد عائلة تتجاوز الخمسين فردًا.

أزحتُ الطريق ليعبر الثور، وبأمر من صاحبته، تقدم كاسرًا باب الفصل، إلى أن غرس القرنين في صدر المُدَرس، فأرداه قتيلًا، ثم أخرجه من الشبّاك، وهو معلق على القرنين، ينسال الدم منه

على الجنينة التي تُجاور الفصل. أما نحن فوقفنا بجانب الجثة نتحاشى أن يُلوثنا دمها بينما نلتقط صورًا تذكارية معها.

كان هذا المشهد، الذي رأيته أكثر من مرة، سببًا في تذكُّر الكثير عن تلك المرحلة. فقد تعرفت على الأشباح التي كانت في الفصل، بفضل رؤيتهم في الشوارع المحيطة، وبالرغم من مرور أكثر من عشرين سنة إلا أنني تذكرتهم، لكنني لم أذهب إلى التحدث معهم، فقد كُنت نسيتُ أسماءهم جميعًا.

تذكرت الخفقان الأول للقلب، والانسياق، وعشوائية الاختيار والتصرف. تذكرت الجواب الذي أملاه عليّ صديقي، وكتبته بخط يدي، ولا أتذكر محتواه. أتذكر مرَضي في ذلك اليوم، الذي أعطيتُ فيه زميلتي الجميلة الجواب، فسلّمته لمُدرس اللغة العربية، كما يُسلم مرشد البوليس تقريره. أتذكر خوفي من أن يتم إبلاغ أبي بينما هو قادم ليأخذني بسبب المغص الحاد الذي أصابني، فيكون له ردٌّ كرَدِّ مُدرس اللغة العربية؛ الذي صفعني على وجهي عدة مرات مستغلًّا سلطته وقوته. وأخيرًا أتذكّر وأمتَنّ للإخصائية الاجتماعية التي تشفّعت لي كي لا يتم إبلاغ أبي والاكتفاء بعقاب المُدرس.

تصادف أن رأيت ذلك المدرس أكثر من مرة، وفي كل مرة فور أن أراه كنتُ أوقفه وأُذكّره بتلك الحكاية، ثم أصفعه على وجهه، لكنني ما إن أنتهي من حلمي، يكون قد اختفى.

يومذاك ذهبتُ إلى صديقي الذي أشار عليّ بكتابة الجواب، وضربته بقوة، فتعامل مع غضبي بهزار، حتى لا يكبر الخلاف، فانتقل الضحك منه إليّ، وقلت له في إشارة إلى المُدرس: «يعني ابن الوسخة

ماكانش بيبوس على السلالم وهو صغير!». فأكد صديقي عليّ أنْ أحمَد ربنا حيث إنهم لم يُبلغوا أبي، فعاودني الغضب وتذكرت الحوار الدائر بين المُدرس واللإخصائية الاجتماعية، بينما هي تتشفع لي، وهو يُصر على إبلاغ أبي، فعقب صديقي: «مش خلاص اتضربت مرة، ولَّا هِيّ سيرة».

أتذكر أنني فور خروجي من مكتب الإخصائية، حين علمتُ بوصول أبي، كنت أدفعه إلى الخروج من المدرسة كي لا يرانا أحد، ولولا أنها كانت السنة الأخيرة في الابتدائية، ربما كنت طلبت منه نقلي من المدرسة. وحين وصلنا إلى البيت، ذهب هو إلى النوم، بينما ظللتُ أُفكر في أول وآخر مرة يأتي أبي إلى مدرستي، وحاولت توقُّع رد فعله لكنني فشلت، وكانت تلك المرة الأولى التي ينتابني شعور غامض تجاه أبي، ويتبادر إلى ذهني سؤال قائم إلى الآن: كيف يفكر أبي؟

كانت الحيرة التي أصابتني إثر هذا السؤال، هي الأولى في حياتي، ولا أظن أنها اندثرت، لكنني أذكر متى عاودت الظهور مرة أخرى.

حين رأيتُني مرة أخرى داخل تلك المدرسة لكن في فصل آخر غير فصلي، رفقة اثنين لا أتذكرهما، لكن عمرهما كان مثل عمري. كان الفصل فارغًا، وتسري برودة في الجو، كُلٌّ منا يرتدي جاكيت جلديًّا أسود، ويعقد يديه من شدة البرد. أتى غريب عَلِمنا منه أن جميع الكتب قد سُرقت من المدرسة. وتلك هي المُعضلة المطلوب حلها.

خرجتُ من الفصل أبحث عن طلاب المدرسة كي أستفهم منهم، فوجدتُها في نهاية الممر. كان شعرها لا يزال كما هو مُموجًا كثيفًا، بشرتها بيضاء، كانت حُلوة وامتدّ جمالها بطول أعمارنا. فتذكرتُ بعد حادثة الجواب. تلك المرة التي طلبتُ من زميلة بجوارها قلمًا، فمدّت يدها بقلم، مُعلنة أن الصُّلح خيرٌ. حينها لمعت عيني، ووددتُ لو أمسكتُ يدها وتفوهتُ: «أحبك». لكنني خفتُ من عواقب لن يفلح معها صُلح آخر.

وصلتُ إلى نهاية الممر، مددتُ يدي للسلام، فاحتضنَتها، وظلتْ تضغط عليها، فاستسلمتُ تاركًا يدي في أحضانها. أخذتني ونزلنا الدرج نعدو، كُنت فرحًا بهذا اللقاء المفعم بشعور طفولي، وكأننا عُدنا مرة أخرى إلى الابتدائية. لم نتكلم كثيرًا، كلمتان صِرنا نتبادلهما. الأولى عن الحنين إلى الماضي، والثانية عن الاشتياق إلى المستقبل.

وصلنا إلى الطابق الأرضي. فرأيتُ اثنين ينقلان الكتب إلى فصل يطُل على الشارع، جذبتها إلى داخل الفصل، تاركًا يدها عند الباب، واتجهتُ إلى أحدهما، فتحتُ شنطته فوجدتها ممتلئة بالجرائد القديمة، فتحتُ شنطة الآخر فكانت معبَّأة بطعام تكوَّن عليه عفن أخضر، تهبّ منه رائحة كالموت. وكأن الشنطة لم تُفتح منذ كُنا في المدرسة. نظرتُ خلفي لأُريها ما وجدتُه، فلم أجدها، خرجتُ من الفصل أتلفتُ حولي، لم يكُن لها أثر، رجعتُ إلى الفصل أنظر من الشبّاك فرأيتُها تمتطي ثورًا خلف أختها، وجثة مُدرس اللغة العربية مُلقاة وسط الجنينة التي صُبِغت بحُمرة الدم!

(٥)

تأججت بداخلنا، أنا ورفاقي في الإعدادية، الرغبة أكثر في تخطي الحواجز، واستكشاف مساحات جديدة من العالم المحيط بنا، فعرفنا عادة التجول في الشوارع، واللعب في صالات البلياردو والبينج بونج، ومناكفة العاملين، إلى أن عملنا بنصيحة بائع الجرائد الذي يضع فرشته أمام مبنى حي المنتزه: «خدولكم مجلة ولَّا قصة أقروها، ولَّا ذاكروا لكم حاجة»، فقادتنا المجلات إلى دولاب عادل الساحر، وكُتبه الرديئة، وكان ذلك أول احتكاك لنا بالمثقفين وأشباه المثقفين، ومعدومي الثقافة.

اسمه الحقيقي، حسين عتمان، لكنه ألصق بنفسه اسم عادل الساحر، لوَلعه بفنان الفولكلور عادل الفار، الذي اتخذه حسين عرابًا لفنِّه، ولفقراته التي كان يُقدمها في الأفراح الشعبية، قبل أن يخبو نجمه في بداية الألفية الجديدة، وسيطرة الدي جي على أفراح الشوارع والقاعات. فلم يجد مفرًّا من كسب عيشه عبر مهنة أخرى، لكنه لم يقطع صِلته بالفن. فعمل على خلق فن من نوع آخر.

دخل عادل عالم السحر والخديعة، كأشهر بائع لبودرة الصراصير، وأقنعة مصاصي الدماء المستعارة. لكنه ظل صندوقًا أسود لعالم فناني الصف الثالث والرابع، وأصحابه من فناني الصف الأول قبل أن يضرب في وجوههم ضوء الشهرة والمجد. وإن لم يبقَ له صلة سوى بجماعة كُتّاب قصر ثقافة «أبو خروف»، وهو اسم العزبة التي يسكنها عادل بمنطقة العصافرة قِبلي.

كانت جماعة الكُتاب الملتصقين، كما كنا نسميهم؛ لأنهم يتحركون معًا بشكل دائم ينتقلون من «أبو خروف» إلى فرشة عادل

تحت كوبري الأكاديمية بميامي، ثم يعودون في آخر الليل، يأتون إلى عادل مُحمّلين بكتاباتهم الرديئة التي يحاولون بيعها ضمن ما يبيعه من خزعبلات. ثم اتجهوا بعد ذلك إلى كتابة الحكايات الجنسية، التي لاقت رواجًا كبيرًا في مدارس الإعدادي والثانوي، وكانت محفزًا للخيال، قبل اجتياح أفلام السكس، التي قدمت المجهول على طبق من ذهب، ضمن مُخطط مُعلن للجميع لمحاربة خيالنا الجامح، وتضييق أفق الأجيال الجديدة، لتسهيل تمرير الرجعية والتخلف، والتسلط الدكتاتوري الفاسد.

لم يكتفِ عادل بكونه منفذَ بيع، لكنه كان يغطس لأيام، ثم يعود بنادرة من نوادره، التي كان يؤجرها بمبالغ ليست هينة. أتذكر أنه مرة جاء بنسخة غير مُنقحة لكتاب ليالي ألف ليلة، مُهربة من لبنان، وأخرى جاء بروايات لكاتبة تُدعى نوال السعداوي، وآخر اسمه صُنع الله إبراهيم، وأكد أنهما كانا ضمن أعضاء جماعة قصر ثقافة «أبو خروف» لكن ربنا كرمهما والنور ضرب في وِشيهما.

كما كان يملك نسخة أصلية من كتاب لم يُطلع عليه أحدًا منا. فقد كان يؤكد دائمًا أن خراب بيته بين صفحات هذا الكتاب، وكان يكتفي بأن يُرينا الغلاف بلونٍ يغلب عليه الأزرق والبُنيّ، بنقوشات أرابيسكية، وسجادة عجمية قديمة يتمدّد عليها رجل وامرأة في حالة غنج، يقطع الغلاف من المنتصف بالعرض شريط أحمر قانٍ، والكتابة باللون الأبيض، بالكاد تراها.

كان يتعامل معه باعتباره وثيقة نادرة من عصورٍ بائدة، زاعمًا أن ما يحتويه لا يقل أهمية عن المخطوطات الأولى لليالي ألف ليلة،

ورموز حجر رشيد. وبالفعل كان الكتاب مثل المخطوطات، ولم يكن كاتبه معروفًا، وإن ظن البعض، أنه من إنتاج جماعة «أبو خروف» الثقافية، لكن عادل نفى ذلك، وكذلك الجماعة نفت أي علاقة لها بالكتاب، بتأكيد مستمر أنهم يترجون عادل لكي يُطلعهم ولو على فهرس الكتاب لكنه يرفض دائمًا. إضافة إلى حالة الكتاب المهترئة التي تؤكد قدمه، والعنوان المسجوع، كما هو معتاد في الكتابات التراثية. فقد كان: «نواضر الأيك في معرفة النيك»، وتحت العنوان كُتِبَ تأليف الإمام فقط ولم يكن لاسم المؤلف أثر على الغلاف.

بحثنا عن الكتاب في المكتبات الموبوءة وعند بائعي الأرصفة، تحملنا الإهانات والسب والضرب أحيانًا، من أجل المعرفة اللا نهائية، والحقيقة المطلقة. حاولنا سرقته من عادل، إلى أن وقعت قطيعة بيننا وبينه، وبعد اعتذارات كثيرة، ووسطاء ومعارف، لم يقبل إلا توسط جماعة «أبو خروف» ليسامحنا، ويوافق على أن يبيع لنا الروايات ونعود لسابق عهدنا.

بقي الحال كما هو إلى أن وقعت الحادثة التي كشفت لنا كل شيء؛ فبينما كنت أشتري منه أحدث إنتاج الجماعة، وقبل أن يغلق دولاب الممنوعات، قبض على قفاه مُخبر مباحث وزعق فيه: «أنت يا خول اللي بعت بودرة الصراصير لابن الباشا؟»، وسحبه كالخروف، وتركني كمراهق عبيط يشتري لعبة يتسلى بها. وتبين بعد ذلك أن ابن ضابط اشترى بودرة صراصير وبلعها، فسبّبت له تسممًا وكاد أن يموت لولا لُطف القدر بعادل.

كنتُ وحدي، ودولاب الممنوعات مفتوح، فتحتُ صندوق عادل الأسود، ومخبأ أسراره، ورُحتُ أفتش عن الكتاب ضمن أكثر من مائة كتاب. وجدت أولاد حارتنا لنجيب محفوظ، ووليمة لأعشاب البحر لحيدر حيدر، وغيرهما لسلمان رشدي ونوال السعداوي وصُنع الله إبراهيم، فتبين لي أن عادل لم يكُن مخبولًا بقدر ما كان يدّعي العته. عند قاع الصندوق وجدت الكتاب. سحبته، وأغلقت الصندوق، وفررتُ إلى البيت.

كان أبي في البيت، فدخلتُ مُسرعًا إلى الحمّام، أخرجتُ الكتاب من بين ملابسي، وجلست على قاعدة الحمام في حيرة، صُدمت حينما وجدتُ ورقًا أبيض، الورق كله أبيض والكتاب فارغ، تحسست الصفحات ربما كُتبت بحبر سِري، مسحتها بالماء إلى أن تفتت ولم تظهر كلمة واحدة. ضحكت لتهافتنا خلف معرفة مبتورة، لكنني قلت لنفسي ربما هذا جزء من الرسالة، أن تقرأ العنوان وتتخيل محتواه، أو تكتب أنت محتواك الخاص. فتأكدت أن عادل إنسان حويط لكنه يدّعي السذاجة، وعرف كيف يلعب بنا ويتسلى بعقولنا الهائجة. فَتّتُّ الكتاب وأفرغت طاقتي في مؤخرة عادل وخرجتُ تاركًا الكتاب يسبح وسط الخراء.

انقطعت علاقتنا بعادل وجماعة المخابيل، حينما أدركنا سذاجتنا، وأن الكتاب للشيخ جلال الدين السيوطي، وله نُسخ عدة، لكنها أصبحت من النوادر والمحرمات في ظل أزهى عصور التخلف والانحطاط، وأن عادل كان يستغل الاسم الصادم، رغم عدم تمكنه من الحصول على نسخة من الكتاب، فتأكدنا حينها أن ما يبيعه عادل مُتواجد في أماكن عدة، لكننا كنا نجهلها.

(٦)

رغم ما بدا من أبي بعدم الاكتراث لأمري، إلا أنه بعدما علم بطردي من المدرسة قام بتبديل مواعيد عمله في الدكان، ليزيد من فترة تواجده معي في البيت. فأصبح يستيقظ أثناء ذهابي إلى المدرسة، وينزل من البيت معي في حدود السادسة صباحًا، ليستمر في عمله لأكثر مِن اثنتي عشرة ساعة، ثم يعود السابعة مساءً تقريبًا، يراقبني في البيت، ثم ينام، ليستأنف دورته في اليوم التالي.

سمحتْ بضع الساعات اللاتي مكثنا فيها معًا، أن أدرك تفاصيل عدة عن حياته لم أكُن ألاحظها أو أهتم بها، كما تحددت لي طبيعة العلاقة بيني وبينه.

اضطرنا وجوده مساءً إلى إحداث تعديل بسيط لتناول الغداء معًا. أحيانًا يشتري أكلًا جاهزًا، أو يُعد لنا بعض الوصفات البسيطة التي اعتاد طبخها، حتى أعود يكون قد خطف غفوة نوم، ثم يأكل ويقلب في التلفزيون، إلى أن ينام.

كنتُ أتابع وصفه للأشياء بحرصٍ وشغفٍ. فقد صار من أهم مصادري لمصطلحات وتراكيب جديدة، أتباهى بها حتى وإن بدت مقحمة ليست في محلها. لكن حينما بدأت في التدوين، عرفتُ كيف أوظف كُل كلمة من كلماته في محلها المناسب.

خلال أيام كنت قد رسمت بدقة تفاصيل حياته القليلة إلى حد العدم. لكن ما لعب في ذهني وشحذ فضولي هو معرفة الطريق الملتوي الذي خاضه أبي ليصل إلى هذا القدر من الثبات والصرامة والمشاعر المحتدة التي لا تحنُّ ولا تلين إلى أي شيءٍ مهما كان.

كنت كلما أحاول تتبُّع خطواته في هذا الطريق، والمشي على آثارها عائدًا إلى الخلف لأصل إلى نقطة التحول، حيثُ بإمكاني أن أقول إنه كان قبلها شخصًا، وبعد ذلك شخصًا آخر، اصطدم بعرج الطريق الذي يفتك بي، أو أجدني أمام بابٍ موصدٍ يُضفي إلى طريقٍ آخر، لا يمرّ منه أحد إلا بإذنٍ من أبي. الأدهى أنه حينما تصل بي خطاه إلى مفترق طريق، لا يكون كمفترق الفوازير والخدع، طريق يُؤدي إلى اثنين فتقع في حيرة بينهما، لكنه كان طريقًا يُفضي إلى عشرة طرق أو أكثر. كُلٌّ له نسبة صحة متقاربة من الآخر، فرُبما هذا أدى إلى ذاك، أو ذاك يصل بين هذا وذاك، ورُبما لا هذا وذاك ولا أي من هؤلاء، لكنه الطريق الذي يقع خلف الباب الموصد؛ لذا هو مغلق ومُحكَم إغلاقه كي لا تمتد إليه يدٌ غريبة غير يد أبي.

ربما لتلك الحيرة، والغموض، لم تربطني به علاقة قوية، كانت علاقتنا أشبه بعلاقة عابرة مفروضة على كلٍّ منا. كنا نلتقي صباحًا ومساءً، لا أتذكر حديثًا دار بيننا عن أي شيءٍ، فقد دفن نفسه في حياة بعيدة وشاقة، فعُزل عني وعن أي حياة أخرى، نجلس على طاولة واحدة فيشاركنا الصمت. تلك الحياة البعيدة الملعونة أخذت منه روحه، وضحكه، وكلامه، وتركت لي جسدًا يأكل، ويشرب، ويتبول، ويتبرز، ويعمل ليلًا ونهارًا في صمتٍ كالقبور.

وددتُ لو تمكنتُ من اقتحام عالمه، ولكن بلا فائدة، لم تكن لديّ قدرة على التفوه بكلمة أمامه، كانت الكلمات، مهما حاولتُ الإمساك بتلابيبها، تهرب قبل أن أقولها، بالكاد تقف على طرف لساني، وأبذل مجهودًا كي أُخرج كلمة، وقبل أن تخرج يكون قد انصرف، أو نام. كانت كلماتي دائمًا مبتورة؛ إذ إنني لم أكن أعرف

أي شيءٍ يهمه، لم أكن أتكلم ولم أغرب عن وجهه، فقط أجلس وأصمت، وبيننا هواء مُصمت لا تخترقه الموجات، لا أحد يتكلم ولا أحد يسمع.

تعمدتُ النوم في وقت استيقاظه فلا أضطر إلى مواجهة نفسي بتلك الخيبة التي نعيش فيها. كان ما يبروز تلك الخيبة بحق، حينما يتبرع أحد الزملاء في المدرسة ليحكي قصة، يظنها فكاهية، عن حوارٍ دار بينه وبين أبيه، وآخر يحكي موقفًا ما أثناء التسوق، بالطبع لم نكُن كلنا من نفس الطبقة المادية، فتأتي الحكايات متباينة، بين تسوق في سوق شارع القاهرة، وتسوق في سيتي سنتر، ورحلة إلى حلقة السمك في «أبو قير»، وأخرى في مطعم سان جيوفاني. فأتأكد حينها من عدم وجود أي حكاية وقعت بيني وبين أبي لأقصها عليهم، فلم نكن نخرج معًا، لم نذهب إلى السينما أو البحر أو نسافر إلى المصيف، لذلك لم تقُم للحياة بيننا قائمة. فتبين لي، من خلال ما صدر عني، قدراتي التأليفية والتلفيقية، فبدأتُ أجمع طرفًا من كل حكاية تُروى، وأصنع لنا حكاية مغايرة عن كل حكاياتهم. كانت الحكايات بالقَطْع زيفًا، لكن ذلك الزيف لم يمنع من ستر عورتي، إلا أنه لم يقف سدًّا بيني وبين ألمي، ذلك الألم العميق الذي التصق بي، فلم يستطع الزمن أن يفصم عقدته.

انزويتُ كل ليلة في البيت وحدي، قابعًا في غرفتي لا أغادرها، خوفًا من مواجهة الصمت، إلى أن رأيتُ شبحًا ثقيلًا حزينًا يستشري في جسدي وفي البيت، ثم صارت الحياة مزيجًا موحشًا وموجعًا من الكدر والحيرة.

بين النوم والتفكير، بين الحلم والحقيقة، حاولت تنفيذ أولى نصائح هيثم؛ فأخذت إحدى الروايات الصغيرة التي كان عادل الساحر، يُجبرنا على شرائها مع رواياته الجنسية. ثم ارتميت على السرير لأقرأها. أتذكر أنها كانت تحكي عن شاب قاهري حائر، استقل عن بيت أبويه بعد طلاقهما، ليعيش في بيتٍ قديمٍ حياةً يائسةً، غير مُرضية يبحث فيها عن سرٍّ، لا يعرف كيف يبحث عنه.

أنهيتها سريعًا، ثم عدتُ إلى الرف وسحبتُ أخرى، وشرعتُ في قراءتها، لكني لا أتذكر منها سوى نومي بمجرد أن بدأت في القراءة، وعدم عودتي لاستكمالها.

رأيتني في أرض فضاءٍ قاتمة، تمتلئ بشواهد القبور المُرتبة صفوفًا وأعمدةً، يتخللها هواء بارد، ارتعش له جسدي، ولكنه غير هواء البيت المصمت، إن تكلمت سيسمعني الموتى، ارتفع شاهد أحد القبور، وكأنه يخرج من الأرض، واستمر في الصعود إلى أن بلغ السماء، فاتجهتُ نحوه ووقفت أمامه فتوقف عن الارتفاع. أيقنتُ أن ذلك الصعود السماوي إشارة لي، فقد كان مكتوبًا على شاهد القبر بخطٍّ عريض: «مدافن عائلة المأمون»، وتحته بخط أصغر قائمة بكثيرٍ من الأسماء يختتمها اسم أبي «هاشم المأمون». تصلبتُ أمامه، لأقرأ الفاتحة بصوت مسموع، يُخالطه الجفاء، وبلا شعور بالألم، وبلا دموع تنساب على خديّ.

واقفًا فوق قبر أبي
جسدي لم يرتجف
لا دموع ولا ألم

كنت ـ فقط ـ أريد أن أدخل
أجلس إلى جواره(*)

استيقظتُ باحثًا عنه في تخوفٍ شديد، فلم أجده، نظرتُ إلى الساعة، كانت قد تخطت السابعة صباحًا، فحاولت الاتصال به، لكن تلفون الدكان كان معطلًا، فعبث قلقي بذاكرتي ورأيتُ الحديث الأسود الذي دار بيني وبين أحد أصدقائي، حينما صارحته برغبتي في موت أبي، ظنًّا مني أن حياتي ستكون أفضل، فهو الآن، بالنسبة لي بالفعل في عِداد الأموات، فإن مات حقًّا فسأتمكن من الذهاب والاستكانة في حرم قبره، أتحدث معه عن أموري ومشاكلي التي أعجز عن حلها.

شعرتُ بذلك حينما مر ثمانية أيام دون أن نلتقي، ولما تقابلنا، كنت وقتها في غرفتي، وقبل خروجه إلى العمل، وقف عند باب الغرفة، وسألني عن أخبار المذاكرة، ثم رحل.

ظللت أتشكك في حقيقة تلك الرغبة، لكنني تيقنتُ منها وقتما أُجبرت أنا وهو على مجالسة الصمت. رغم ما تبين لي من مدى وجاهة موقفه من قلة اللقاءات بيننا إذ إنها كانت تفضح صمت الفراغ، وخواء العلاقة. إلى أن أتى هذا المساء ليساومني إن كنت راغبًا في الحديث مع أبي أم الحديث مع قبره، كان خيارًا غير يسير، خيارًا بين الموت المادي والموت المعنوي، مفاضلة بين السكينة والعيش في كنفه، وإن كان بشكلٍ صوري. وبين التعرّي والتعاطي مع فاجعة الموت، وخوض المواجهات بعد موته.

(*) رواية «عيون البنفسج» لعلاء الديب، ص ١٣٢، طبعة دار الهلال.

قضيتُ طوال اليوم في غرفته، فترامى إلى أذني صوت يده وهي تزج بالمفتاح في الباب، فأغلقت النور، ونمت. دخل الغرف أنارها، فتصنعتُ حالةً بين النوم والاستفاقة بسبب النور الذي أناره فجأة.

جاء اللقاء باردًا بمجرد أن تأكدتُ أنه لا يزال على قيد الحياة. ثم عادت الأمور إلى شكلها الرتيب المعهود.

في مساء هذا اليوم أخبرني أنه سيعيد مواعيد عمله كما كانت، من السادسة مساءً إلى السابعة صباحًا، وكان ذلك مؤشرًا آخر على الموت.

(٧)

تعطل القطار بين محطة طوسون وتحويلات القضبان التي تليها، أثناء طريقي إلى سوق حلقة السمك بـ«أبو قير»، فاضطر الركاب وأنا معهم إلى النزول واستكمال الطريق سيرًا بمحاذاة قضيب القطار. خرج كلٌّ إلى حاله عبر الفتحات التي شقها المارة في سور القطار. لكنني استكملت الطريق مشيًا إلى المحطة التالية، مستمتعًا بالقفز على القِطَع الخشبية المُثبتة تحت القضبان، واللعب مع نفسي بأن أقفز وأعد مائة عدة دون حيود عن القضبان، حتى وإن جاء القطار، واضطررت إلى التوقف، فقد خسرت، ويمر القطار وأحاول مرة تلو الأخرى إلى أن أفوز.

كان الهواء باردًا، والسماء غائمة، والأرض تلمع من تحتي إثر حبات المطر وضوء النهار الخافت. كدتُ أنزلق، فتمالكت نفسي وتوقفتُ عن اللعب. أكملت السير بجوار القضيب على الأرض

الرملية، المحملة بمياه المطر، محاولًا البُعد عن البِرك الغائرة. مررتُ بجوار عشش وبيوت نصف مبنية، نصف مهدومة، كنت ألمحها حين يمر القطار بجوارها سريعًا، لكنها لم تستوقفني، ولم أتوقع أن يكون فيها مغامرة تُذكر، كانت معروفة كمأوى لنبَّاشي الزبالة، ومُتسوّلي المدينة. ممتدة على طول حرم القطار في المساحة بين السور والقضيب، متهالكة فقد بُنيت من مخلفات هدم البيوت.

وجدتُ طفلا يلعب في تلك المساحة الملتهبة، التي يبزغ القطار فيها ثم يخبو كل عدة دقائق. كان حافيًا يستمتع ببرودة الرمال، ملابسه خفيفة، ممزقة، غير عابئ بلسعة البرد التي تخالط الهواء. نادى صوت أنثوي من داخل إحدى العشش، فتحرك عائدًا إليها، تتبعته إلى العشة التي كان نصفها من الصفيح والآخر من كُتل أسمنية معشقة في بعضها بألواح خشبية نخرها السوس. وقفت أمام فتحة العشة، محاولًا استكشافها من الداخل رغم الظلام المسيطر عليها، عدا خيوط الضوء العابرة من ثقوب الحوائط والسقف. توسطت العشة امرأة بجسد منحول، ملفوف برداء أسود مهترئ، بجوارها طفل آخر تُهدهده، فبدا وكأنه محموم إثر برد الشتاء. لم تلاحظني بينما كنت أحدق في شعرها المتكتل على كتفها ليشوش صورة نصف صدرها العاري، لكنها التفتت إليَّ، وسألت الطفل عني، فاختفيتُ من أمامها.

استكملت طريقي إلى المحطة، وكان القطار لا يزال معطلًا، وأغلب العشش الأخرى مغلقة، وقبل ركوب قطار العودة قررت المرور مجددًا من أمام العشة لأسترق نظرة أخرى من المرأة التي بداخلها. زاد عدد المارة في حرم القطار بعدما أُشيع خبر العطل

المستمر لأكثر من ساعة. وقبل وصولي إلى بداية العشش، جاء صفير قطار ومر بجواري، وقبل العشة المطلوبة، رأيت الطفل يلعب بحجارة بازلتية صغيرة من المرصوصة بين القضبان، كان يلعب بحرية بعدما اطمأن لمرور القطار. لمحت قطارًا آخر آتيًا، والطفل غير منتبه، صِحت وأنا أجري تجاهه لأنبهه، وخرجت أمه إثر صوتي العالي، والطفل يحاول القيام، فينزلق، فيمر القطار خاطفًا الطفل، وعيني، وروح أمه، التي سقطت على ركبتيها، وراحت تلطم، وتنبش في التراب، اقتربتُ منها في رعب مانعًا نفسي من الهروب، ويبدو أنها لاحظت وجود الشخص الذي حاول إنقاذ ابنها، فتأثرت حين رأت صغر سِنه، على الأقل بالنسبة لها، كنت حينها في حدود خمسة عشر عامًا، بينما بدت في منتصف الثلاثينيات. مر القطار، فوقفت بينها وبين ابنها لأمنعها من رؤيته، فاستجابتْ لمحاولتي، واحتضنتني باكية، فبكيتُ لحالها.

جاء المارة، وسحب أحدهم فرش السرير، ولفّ فيه الجثة المشقوقة، وعلا الحديث عن الوضع الكارثي لتلك العشش، والإهمال في مراعاة الأطفال، وهي منزوية في ركن العشة خائفة أكثر منها حزينة. تكفّل إمام الجامع المجاور بدفن الطفل في مقابر الصدقة، وهي تقبض على طفلها الآخر، وتشد على قميصي: «أنا خايفة يطلعوني من العشة، أنا ماليش مكان تاني»، وأنا أطمئنها أنهم سيذهبون لحالهم، ويكتفي كل منهم بحكي ما حدث لمعارفه. وبالفعل بعد نصف ساعة لم يتبقَّ سِوانا وإمام الجامع، ذهبنا معه لدفن الطفل، وانتهى اليوم المُريع، الذي بدأ بنظرة لنصف صدر عارٍ، وانتهى بدفن جسدٍ شُقَّ نصفين.

أتيتُ مرة أخرى، بعد يومين، إلى مكان الحادث، وكانت العشة مغلقة، ولم أجد أحدًا لأسأله عنها، ولم أكن أعرف اسمها، فبدأت أشك في مكان العشة الحقيقي، فالعشش متشابهة إلى حد بعيد. أكملتُ طريقي إلى «أبو قير»، وهناك فكرت في العودة إلى العشة مرة أخرى، كما فكرت في أخذ أي شيء معي، فاشتريتُ فاكهة، وذهبتُ إلى العشة، فوجدتها مفتوحة وابنها المحموم وحده يجلس على طرف السرير، أخرجت الفاكهة، وناولته برتقالة يلعب بها، وقشرت له واحدة. دخلت أمه من باب العشة، سدّت الباب بقامتها وساد الظلام، لكنها تعرفت عليّ، وتذكرتْ أنها فقدَت ابنًا منذ يومين، فاقتربتْ مني بينما كنتُ جالسًا على طرف السرير، وأخذت رأسي بين يديها، وضمتني إليها، عاطفة عليّ مما رأيت. أحطتُها بيدي مُتأثرًا لأُهوّن عليها، ولم أكن معتادًا على تلك العاطفة، وحس الأمومة. اصطدمتْ يدي بشيء لحيم، اضطربتُ وخفتُ أن تنزعج أو تتهمني بشيء، لكنها طمأنتني وقبّلت رأسي، وجاءت رأسي بين نهديها فشعرتُ بسخونة وهزة تسري في جسدي، رغم غرابة وقذارة الجو العام.

توالت زياراتي لسحر، التي أصبحت لي كالمأوى كلما هربت من المدرسة، بل أكثر من ذلك كانت عوضًا لي عن رعاية لم أعهدها من قبل.

كانت سحر ضمن مُشرّدي زلزال ١٩٩٢. استيقظت صباح الاثنين ١٢ أكتوبر ١٩٩٢، واحتد الخلاف بينها وبين زوجها، غادرت بيتها بعزبة شبرا دمنهور، متجهة إلى بيت أبيها في الدلنجات، لكنها

فوجئت قرب أذان العصر، بهزة شديدة تموج بالأرض من تحتها، وصراخ في ميحط موقف السيارات، ومنازل تتصدع وتستوي بالأرض. بدأ وفي لحظات انتهى كل شيء، عادت تُولول إلى بيت زوجها، الذي صار ركامًا من الحجارة والخرسانة، وكأن لم يكُن.

استمر تقليب ونبش الهدم واستخراج الجثث، حضر أهل زوجها، وانهالوا عليها بالسب والشتائم، وذاع صيتها بعد ذلك بين الأهالي بـ«المَرا الشؤم»؛ حيث إنها لم تُكمل عامها العشرين ومات زوجها الأول في العراق، والثاني تحت أنقاض الزلزال. عادت إلى بيت أبيها، الذي علمت بموته هو الآخر، ورفضت عمتها أن تؤويها. انقلبت حياتها خلال أسبوع، هامت في الشوارع تتسول ما يُبقيها على قيد الحياة. وظلت تتابع إجراءات الحكومة لمساعدة مُتضرري الزلزال، إلى أن تملكها اليأس، حتى أتتها النجاة الأخيرة، بالعمل كخادمة مع إحدى معارفها، لكن كان يجب عليها أن تبتعد كثيرًا عما يتتبعها من مصائب، فصحبت زميلتها إلى الإسكندرية.

كانت زينب العسال زميلتها في خدمة البيوت، مومسًا رديئة، تعمل تحت طوعة قوَّاد يُدعى السيد أبو دراع، لإصابته بنقص في نمو يده اليسرى، ولكونها مومسًا غشيمة، لم تتحصن بما يكفي، فكانت تحبل دون قصد، وجاء معها السيد أبو دراع إلى بلدها كزوجها وأبو الطفل. وتعود بعد ذلك لتختفي عن أنظار الجميع، وتستأنف أعمالها. نفرت منها سحر في البداية، لكنها لم تجد سبيلًا آخر غير مرافقة زينب، رغم ذلك اكتفت بالخدمة في البيوت ومراعاة الطفل. بعد ذلك جاء الطفل الثاني، واستمر الأمر كما هو. عرفت سحر طريق مجمع العشش في حرم القطار عن طريق

زينب وقوّادها، بعد أن نشب خلاف بينهما على نسبة الأخير من أعمالها الخاصة، فطردها من مأواه، لتجد زينب في العِشش المأوى المناسب لها ولسحر، حتى بعد الصلح بينها وبين السيد لم ترغب في العودة لمسكنه. واكتفيا بشراكة العمل.

جاء السيد لمجمع العشش أكثر من مرة ليحاول إغواء سحر للعمل معه، حيث إنها ما زالت صغيرة، وعليها طلب، كما كانت أجمل من زينب، ولن تجد صعوبة للترقي في المجال، وأن العمل معه أريح من الخدمة في البيوت، لكنها كانت تصده وينتهي الأمر. كان يفور جسدها في كل مرة، وتتشوق لحياتها الطبيعية، لكنها كانت تخشى أن تتحول من سحر الخادمة المحترمة، التي كوّنت سُمعة طيبة بين البوابين وسيدات البيوت، إلى سحر الشرموطة، فكانت تتبعه لتتأكد من رحيله، لتعود إلى عشتها تغلق بابها، وتحاول تصبير نفسها كيفما قدرتْ على ذلك. لكنها في إحدى المرات، رأته يدخل عِشة حسن زبّال المعمورة، ثم لاحظت خروج الدخان من العشة، فاقتربت من ثقب في الحائط، فرأت زجاجة مياه بلاستيكية على رأسها حجر شيشة عليه قِطَع الفحم، يفرك حسن عليه قطعة حشيش، ويُشعلها، إلى أن تمتلئ الزجاجة بالدخان، فيرفع الحجر ويستنشق الدخان. تناوبَ حسن والسيد على شرب الدخان، إلى أن بادر حسن بحركة غريبة حيث مد يده ليتحسس عضو السيد، حدقت سحر فيما تراه، بينما استمر التحسيس المتبادل بينهما، ثم اشتدت الوتيرة بتبادل القبلات الحارة إلى أن خلعا ملابسهما، بدا حسن وكأنه يستعجل الانتهاء فسند يده على حافة السرير موجهًا اِسته،

بشعرها الكثيف، إلى السيد، الذي غرس عضوه فيها، ثم تبادلا الأدوار، وسحر تتابعهما بتقزز. خافت أن يراها أحد، فتُقحم نفسها في مشاكل معهما، فعادت بهدوء إلى عِشتها، فهمتْ حينها لمَ لم يحاول معها السيد من قبل، فهو لا يخلط بين حياته العملية والعاطفية؛ النساء للعمل، والرجال للحب. ارتمت على سريرها متذكرة حياتها التي كانت تحلم بها، والاستقرار الذي صار حلمًا بعيد المنال، تحسستْ جسدها بعدما سرى الهياج فيه، تقبض بعزم على صدرها، تكاد تقطع حلمتها، تتمنى لو أنها تعود ولو ليومٍ واحد لما كانت عليه.

اختفت زينب لعدة أيام، ثم شاع خبر قتلها في إحدى شقق الإيجار بالمعمورة، وشهد البواب، أن السيد أبو دراع كان معها قبل قتلها، وأنه نزل ودفع له إيجار أسبوع ليعطيه لصاحب الشقة، وبناء عليه لم يحاول اقتحام الشقة إلا بعد أن فاحت رائحة عفنة. انتشر سر شبكة القوّادين والمومسات والسماسرة، واختفى السيد، ولم تهتم الشرطة بالقضية؛ مومس قتلها قوّاد، قد تكون قضية مثيرة لمجتمعنا الشريف، لكنها لا تكفي لتُحرك المخبرين ومُحققي المباحث، بالعكس فقد رأوا أن المومس تلقتْ جزاءً عادلًا.

قُتلت زينب وتركت لسحر طفليها لتعتني بهما؛ أحمد ثلاث سنوات، والسيد سنة واحدة.

اعتدتُ المجيء لسحر كلما هربت من المدرسة، وكان مثل هذا مسارًا جديدًا عكس ما اعتدت بين البحر والمقهى. توطدت بيننا علاقة فريدة، كنت أذهب معها إلى السوق، ولأول مرة أقتحم

حلقة بائعي السمك، ولا أكتفي بمشاهدة السمك من بعيد، ومرة أو اثنتين ذهبت معها شقة في المعمورة كانت تنظفها قبل بداية إجازة الصيف، لكني أغلب الأوقات كنت معها في عشتها.

بعدما ألفتُ المكان أدركتُ عدم اهتمامها بالسيد ابن زينب، مثلما لم يدُم حزنها طويلا على أحمد بعدما دهسه القطار، بدت كما لو أنها تمنت الخلاص منه هو أيضًا، خاصة حين أكون معها.

حكيتُ لها كثيرًا عن المدرسة، وعن أبي، لكنها كانت دائمًا ما تسألني عن مشاكلي التي تضغط عليّ، تتعمد الكلام عن أمي، وعن حرماني من عطف الأمومة، وعن علاقتي المفككة بأبي، بعد ذلك تضمني إليها لتُهوّن عليّ آثار الحزن في نفسي، وتعوضني عن آلامي، ثم تعتذر عن اقترابها مني أكثر من اللازم. بعد ذلك تحكي هي عن كفاحها ضد الانغماس في بحر الشرمطة، الذي يدعوها الجميع للخوض فيه؛ البوابون والسماسرة وأصحاب الشقق التي تنظفها كل شهر. وتقص عليّ كيف تعمد الأستاذ فلان الاحتكاك بها وهي تمسح المطبخ، بينما عرض عليها علان مائة جنيه لتبيت معه ليلة. وتقف تتحسس جسدها أمامي، مؤكدة أنها إن وافقت مرة فستوافق كل مرة.

انقطعتُ عن الذهاب إلى العشة بعد طردي من المدرسة، ووصول الخبر إلى أبي، فقد تأثرت بوصاياه، كما أنني كنت أخشى أن يعرف انخراطي في هذا العالم السفلي، كما عرف بقعدتي رفقة إبراهيم وأصحابه. وقد خفتُ أن أتورط مع سحر في أي مشكلة، فتكون مصيبة جديدة تنصَبّ فوق دماغي. رغم ذلك لم تكن قطيعة تامة، فكانت تأتيني في خيالاتي وأحنّ إلى رؤيتها حين تغلق باب العشة

لتأخذ راحتها في القعدة، فتظهر معالم جسدها الفائر، فأقوم بزيارتها مُحاوِلا التخفف من ثقل خيالاتي. إلا أنها كانت تبادرني بجفاء في بادئ الأمر بالأخص كلما باعدتُ بين موعد الزيارة والأخرى، لكنه كان جفاءً مصطنعًا لا يستمر كثيرًا حتى تعود إليّ منكسرة كما كانت.

مع بدء الثانوية العامة، كنت أمر عليها مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر، فقد أسرتني المذاكرة، إلا أن سحر كانت تجد في عُزلتي مدخلًا. وفي شتاء ٢٠١٢ في أوج حالة التراخي التي مررت بها في الصف الثالث الثانوي، وبعد انقطاع دام لستة أشهر ذهبت إليها، فوجدتها تمسح دمعها، والسيد غير موجود، ظننت أنه لحق بأخيه، سألتها فأجابت أنه يلعب مع أولاد البوابين، لكنها كانت تبكي لأن السيدة التي تنظم لها العمل بمدينة فيصل، طردتها بوشاية من زوجها، مفادها أن سحر تغازله بسلوكها السيئ في كل مرة تأتي إليهم. وكانت المدينة بابًا واسعًا للرزق بالنسبة لها، فحزنت عليها، كما حزنتْ على نفسها حيث إنها لا تستطيع رغم كل محاولاتها الهرب من سُمعة المومسات.

لم أكن في مزاج رائق، وزاد حديثها من كدَري، فقد كنت آتي إلى هنا للانسلاخ من عالمي، والعيش في عالم جديد، أستمتع فيه بالحديث، وبالاستهبال المتبادَل بيننا، كلما كنا نتحرك متلاصقَين ببعضنا البعض في العِشة الضيقة. لاحظتْ سحر شرودي، سألتني، فتعللت بإرهاق المذاكرة، فطيبت خاطري، وأجلستني لجوارها، وبدأت تتكلم عن تأملاتها في وجه التشابه بيننا رغم أنها أكثر تشردًا مني، إلا أنني أُشبهها في الوحدة. كما ترى في نفسها تعويضًا لي عن وحدتي وغياب مَن يعطف عليّ. سألتُها إن لم أكن أعوضها

عن وحدتها، فضحكتُ، وأكدت أن وحدتها أكبر مني بكثير. طوّقتها مثلما تفعل لأهون عليها، فلمحت طرف نهدها يبرز من تحت العباءة، فدبّ التنميل في جسدي، تصنعتُ الهبل وطلبتُ منها أن تضمني إليها، واضعًا رأسي على صدرها حتى استشعرت طراوته، فوقفتْ منتفضة، وظلت أمامي تحدق فيّ، ثم جلست بجواري مرة أخرى مُدعية أنها تخاف عليّ، لم أستطع الكلام، تسمّرت عيني في الأرض، إلى أن خلعت عباءتها، وكأنها تحاول تلافي رطوبة المكان، ثم عادت تلتصق بي ثانية، فطوقتها مثلما كنت، متحسسًا ومستمتعًا بجلدها الناعم.

مرّ الأمر سهلًا هينًا، استمتعتُ خلاله بجسدها رغم قذارته، وبجذوة نشوتها التي لا تنقطع. كانت المرة الأولى والأخيرة لنا في تلك العشة، بعد ذلك كانت سحر تنظم لنا مقابلات في شقق شاغرة تقوم بتنظيفها. نستمتع خلال تلك الأوقات بتعويض كل منا الآخر عما سلبته منه الأيام، أغضب أحيانًا، أستمتع بالقضاء على ندية العلاقة، وبمُمارسة سلطة لقيادة شيء، لا أعلم عنه إلا الفتات، في طريقٍ مجهول. بينما لم تهتم سوى بالتأكيد الدائم على السرية؛ حفاظًا على السمعة المزعومة.

(٨)

سافرتُ إلى القاهرة في مطلع السبعينيات، وكان مثل أي سفر له سبع فوائد؛ يمكن حصرها في «انعدام الرقابة» مكررة سبع مرات؛ فقد كانت الأمور أيسر من سابقاتها، وكانت الجامعة منفرة أكثر من

المدرسة، بطبقيتها، وعوالمها المتشعبة، وكنا نحن الفقراء الفاشلين من طلاب الأزهر، نقع في أدنى المدرج الطبقي للجامعة. إلا أن حالة الفوران التي ماجت في البلد عامة، كانت في أوجها هناك، وساهم ذلك في سرعة الذوبان في مجتمع لا يملك رفاهية التندر بمكانته المادية في إطار عام يُبرز لك في كل خطوة أنك جزء من مجتمع مُحتل، لا يملك سلطة نفسه. فكانت حينها التفرقة الأهم والأقيم عبر مدى مشاركتك في الدعوة إلى الحرب ومدى إقبالك على تقبُّل حمل السلاح والتضحية بنفسك، لكن ذلك أيضًا لم يَخلُ من تفرقة حزبية، وصراعات داخل التيار الواحد؛ فقد كان بعض من الطلاب اليساريين لا يزالون يبحثون عن الحل في وسائل مختلفة تبدو براقة ومبتكرة لتطبيق نظرياتهم، بينما يئس البعض الآخر من إمكانية استعادة ما خسره من مكانة داخل الحركة الطلابية، وكانت حالة اليأس هي العامل المشترك بين كل الطلاب من كافة التيارات، باستثناء طلاب الجماعات الإسلامية؛ الذين سُمِح لهم بالتواجد في النشاط المجتمعي بعد الحظر الذي استمر طوال سنوات حكم عبد الناصر، بدءوا ينظمون أنفسهم، ويوحدون خطابهم بشكل يسمح لهم بعمل تكتلات، ولم يكونوا يُجيدون شيئًا سوى الحشد، بالسيطرة على عقول أكبر عدد من المخابيل.

قضيتُ سنتي الأولى في حالة من الرفض لما يحدث حولي، غير مبالٍ بشأنه، فلم أكن أتحمل يأس وعدمية الحياة التي يحيا بها نصف طلاب اليسار، ولا حالة الهياج التي يحيا بها النصف الآخر. ولم أكن لأزج بنفسي في عالم الجماعات الإسلامية بعدما خُضت معهم تجربة لسنوات بمدارس الأزهر، عرفت خلالها الكثير

من عاداتهم وغاياتهم؛ لذلك اكتفيت بالسهر والشرب، والتلذذ بغياب الرقيب، والتمتع بتجربة الاستقلالية، وتعلم الطبخ والغسل، وكل أنشطة البيت.

إلا أن الحياة في جامعة الأزهر كانت تقربني، دون عمد، من طلاب الجماعات الإسلامية؛ وذلك لتقارب مستوى المعيشة، والحالة المادية القحط. فكان يعرف بعضنا بعضًا من هيئتنا المهلهلة، فتعرفتُ عليهم أكثر، وشاركتهم أنشطتهم في لحظات انكساري، ورجوعي إلى الله. وخلال سبع سنوات قضيتها في القاهرة شاهدت نموهم وتغلغهم في الأوساط المختلفة، والترابط بينهم في عدة جامعات ومُدن. وأذكر أنني بعد اعتقالات سبتمر ١٩٨١، قلت لوالدي إن السادات سيُغتال قريبًا، وكان ذلك تكهنًا مني، طبقًا لرؤيتي المحدودة وبعض المبالغة، إلا أنه بعدما اغتِيل السادات فعلًا، ظن أن لي صلة بما حدث، فخاف أن يتم اعتقالي في هوجة رد الفعل، فأجبرني على السفر إلى أهلنا في الأرياف لحين استقرار الأوضاع.

مرت السنة الأولى، وانتهت بفاجعة رسوبي في كافة المقررات، فقامت على إثرها مندبة في بيتنا بالإسكندرية وصل صداها إلى ضواحي مدينة نصر حيث نستأجر السكن بجوار الجامعة، وكان ذلك تأكيدًا للإنذار الذي دوّى إثر نتيجة التنسيق.

وقعت حرب أكتوبر خلال الفصل الأول من السنة الثانية، وكان ثلاثة من إخوتي الأكبر سنًّا قد شاركوا فيها، وأُصيب أحدهم، وكرّمه السادات، وكان لذلك أثرٌ طيبٌ على العائلة، وعليَّ بشكل

خاص، فحينها هدأتْ تمامًا حالة الفوران التي شهدتُها خلال السنة الأولى، وخفتَ نجم تيار اليسار، واستحكم اليأس من اليساريين، وهم يرون توقيع اتفاقيات السلام والانفتاح، الواحدة تلو الأخرى، تحت لواء نصر أكتوبر، فلم يبقَ منهم سوى قلة، ظل الجمع يرى أنهم سقطوا من حسابات الزمن، يحاولون لَيّ عنق الواقع وتأويله، ولكنهم لا يملكون القدرة على دفعه في أي اتجاه. أما الجماعات الإسلامية، وبالأخص طلابها، فقد اشتدت شوكتهم، وتضخموا كأشجار اللبلاب التي تتغذى على طفح ماء المجاري فتنمو على جدران المنازل لتعزل عنها ضوء الشمس، فلم تتمكن السلطة من احتوائهم، حتى أصبحوا الندّ الأكبر لها.

حاولتُ الاجتهاد في المذاكرة إلا أنني كنت بلا أساس لأبني عليه، فانتهى الفصل الأول من السنة الثانية، بنفس نتيجة السنة السابقة، وفي أمسية غضب حاسمة أحرقتُ كل الكتب والأوراق المتعلقة بكلية الهندسة، وفي صباح اليوم التالي سحبتُ ملفي من الكلية، وقدمته في كلية التجارة، وكنت أعلم أن ذلك لن يمر هينًا على والدي، إلا أني أخبرته الأمر بصراحة تامة وأسًى على ما آلَ إليه الأمر؛ حتى يتفهم حالتي، واعتذرت له إذ إنني لم أكُن مصدر سعادته، وعلى الأرجح لن أكون.

طلب أبي مني أن أضبط جلسته على السرير، وأفتح شبّاك الغرفة. وقد اكتسى وجهه بمسحة من الكدَر، بينما شَردَ في ظُلمة السماء، وارتسمتْ على وجهه ابتسامة تقع في منطقة غائمة بين الحنين الصافي والندم الحزين، لعله تذكر شيئًا رُبما لم يرغب في حكيه، عن ذاك الخلاف الذي نشب بينه وبين أبيه، والذي تبعه تحوّل كبير

في مسار حياته. إلا أنه كان يجتهد ليضحك، بالقدر الذي لا يُجهد عضلة قلبه، بالأخص حينما قصّ واقعة الاغتيال.

قضيتُ ما تبقى من السنة وإجازة الصيف في الإسكندرية، وكان ذلك بداية عهدٍ جديدٍ، فقد وقفت في إحدى محطات الانفتاح، لأركب قطار الحرفيين، عازمًا على تعلُّم حرفة النقاشة وتشطيب البيوت.

كانت لي معرفة سابقة بالتشطيبات، فقد عملت في الإجازات الصيفية مع بعض الصنايعية، وتعلمت منهم بعض مهارات المهنة؛ كسحب المعجون، وتخليط الألوان، وكان ذلك قبل ظهور ألوان الكمبيوتر. تفرغت لتعلم الصنعة، وتنقلتُ مع الأُسطى صابر؛ المشهود له بالتميُّز، من شقة إلى أخرى، وظللتُ أعمل معه لما يقرب سنتين، قبل بدء العام الدراسي الثاني، أتقنتُ خلالهما كل تفاصيل المهنة، والأهم أنني أنشأت علاقات مع عدد كبير من الأسطاوات والمساعدين؛ مما يسّر لي العمل بعد ذلك.

ظهرت نتيجة السنة الأولى بكلية التجارة، وكان لنجاحي وَقْع طيب على أهلي، وبدأ والدي يتقبل أن دراسة التجارة أفضل لي من الهندسة. وبنهاية إجازة الصيف، تركتُ العمل تمامًا مع الأسطى صابر، وكنت خلال تلك الإجازة نفّذت بعض الشقق لحسابي بشكل كامل.

انتقلت إلى القاهرة مع بداية العام الدراسي الثاني، وكان انتقالًا أشبه بالهجرة، فقد بدأتُ خلال السنة الأولى أُسوِّق لنفسي كأسطى نقّاش، لكن ذلك لم يكُن بالجدوى المرغوبة؛ لذا حاولت تنظيم عملي، والاستقرار في القاهرة للعمل والدراسة.

أقحمتُ نفسي في عالم المقاولين، والإنشاءات، وبدأ العمل يتوالى عليّ بعد تنفيذ عدة وحدات صغيرة، فقد اتفقتُ مع مقاول له باعٌ في المهنة على تشطيب كامل لعمارتين كبيرتين، وترك لي تنسيق جميع شئونهما، بدءًا من تأسيس الكهرباء والسباكة إلى تشطيبات النقاشة. وكان الانتهاء من هاتين العمارتين فاتحة رزق كبير في تلك المهنة. إلا أنني لم أكُن حينها أتفهّم مكانتي، ولا الجهة التي كان يجب عليّ أن أوجه نفسي لها كي أُنمي أشغالي. وغرّني تدفق المال عليّ، وغرّني أكثر لعب دور الكبير في بيتنا، حيث كُنت أُرسل جزءًا من أرباحي إلى والدي، لكنه رفضها في البداية، إلى أن نجحت خلال مكالمة تلفونية دامت أكثر من نصف ساعة أن أقنعه بذلك الطريق الذي سلكته خلال السنوات الثلاث السابقة والذي انتهى بي إلى امتلاك هذا القدر الكبير نسبيًّا من المال.

كان نجاحي في السنة الأولى والثانية نقطة هامة في تقبل والدي لوضعي الجديد، لولا رسوبي في العام الثالث، الذي جاء في غفلة مني؛ إذ لم أهتم بالقدر المناسب، واكتفيت بمتابعة أعمالي، والسهر والتمتع بليالي الكازينوهات والكباريهات، حتى أفقت على نتيجة العام الدراسي: «راسب ويبقى في الصف الثالث»، فاستشعر أبي أن الأمور انفرطت من جديد، وأنه وَجَبَ عليه التدخل بأي شكلٍ كان. فما كان منه إلا أن جاء إلى القاهرة، ليراقب أحوالي عن قرب، ثم أعادني معه إلى الإسكندرية، مُعلنًا رفضه لذلك الشكل الذي أعيش به حياتي، كما ألزمني بأن أترك حياة الأسطاوات والمَعلّمين، وأن أنتبه إلى دراستي لأحصل على شهادة، وبعد ذلك يفعل الله ما يشاء.

حاولت طول إجازة الصيف تليين دماغه، إلا أن الأمر كان محسومًا بالنسبة له، فما كان مني إلا الرضوخ لقناعاته، وقضيت سنتين أعمل في القاهرة دون علمه، بمعدل لا يُذكر، وأصرف كل مدخراتي، حتى تخرجت وحصلت على بكالوريوس التجارة، فعُدتُ إلى الإسكندرية بتلك الشهادة المهترئة، وقد فقدتُ أغلب علاقاتي السابقة في المهنة.

وصل جواب تعيين الحكومة براتب تسعة عشر جنيهًا شهريًّا، وكان ذلك دعوة للعودة إلى حياة المَعْلَمة؛ فقد رفضتُ حينها استلام العمل، وبدأتُ أُعيد صلاتي بالأسطاوات في الإسكندرية مرة أخرى، وأبحث عن مناطق جديدة لنجد فيها شغلًا بالجملة خيرًا من شغل القطّاعي في وسط البلد. فاكتشفت منطقة العجمي، كمنطقة بِكْر، لا يجد الشغل فيها مَن يُنهيه، فأبرمتُ أكثر من اتفاقية تشطيب مع أكثر من مقاول، وبدأتُ في ضم أكبر عدد ممكن من الصنايعية للعمل تحت قيادتي، وكان أغلبهم أُميّين، أو لم يُكملوا تعليمهم، فسهّل ذلك من تطويعهم، باعتبار أنني تعليم عالٍ وخبير في إدارة الأعمال، ومنذ ذلك الوقت، اكتفيت بعقد الصفقات والإشراف على تنفيذ الأعمال، وتوقفتُ تمامًا عن العمل بيدي.

استمر ذلك حتى منتصف الثمانينيات، كبرَ فريق العمل تدريجيًّا، فأصبح أكثر من مائة فرد، من كل التخصصات، وزاد تدفق الأرباح، وكان الأمر مُغريًا للعمل أكثر، لكن تقلبات السوق كانت تتطلب تنظيمًا أكثر، وكان ذلك إخفاقي الثاني، حيث لم أنظم مصروفاتي بشكل يتكيف مع مَوجات العمل، التي كانت تعلو في مواسم، وتخفت في أخرى.

اصطدمتُ بهوجة الحديث العائلي حول المكانة الاجتماعية التي غَرستُ نفسي فيها، وأن الوجاهة الاجتماعية تتطلّب قدرًا من الهيئة المهندمة لا تتماشى مع العفرة والرمل والأسمنت، وأن الأمان الذي تُحققه الوظيفة الثابتة أضمن من حياة الأرزقية، وبإمكاني العثور على وظيفة ممتازة في إحدى دول الخليج بشهادتي، تضمن لي دخلًا كبيرًا وثابتًا، تستقر به حياتي، ويرتقي بي إلى مكانة أقيم مما أنا فيها الآن.

كان لهذا الحديث تأثير على نمط تفكيري في تلك المرحلة، واستعجلَ الوصول إلى قرارات عدة بشأن مستقبلي؛ فقد كانت لي مخططاتي حول إنشاء شركة مقاولات خاصة، وكان حلم الثراء إثر هذا المشروع يداعب خيالي، لكن استمرار العمل على الوتيرة ذاتها لما يقرب من سبع سنوات، وملاحظة عدم سَيره في نسق تصاعدي كانا يؤكدان أنني أبعد ما أكون عن ذلك الثراء المرغوب، أو هذا ما كنت أظنه في ذلك الوقت. هذا بالإضافة إلى أن رؤية المغتربين العائدين من دول الخليج كانت عاملًا آخر للعدول عن أحلام اليقظة، والتوجه إلى منطقة أخرى تبدو حقًّا أكثر أمنًا، وبلا مخاطر تُذكَر.

قبلتُ عقدَ العمل الذي جاء لي عن طريق أخي الأكبر، الذي كان يعمل منذ ثلاث سنوات في الكويت، سبقهم بعدة سنوات مُتنقلًا بين ليبيا والعراق. قبلتُ العقد وسافرتُ إلى الكويت تاركًا وراء ظهري كل آمالي عن حياة كنتُ أظنها أجمل مما آلَت إليه.

كان عملي في الكويت أبسط مما كنتُ أقوم به في مصر، محاسب في مصنع وعدة منافذ بيع للعب الأطفال، كنت أتنقل من فرع إلى آخر

يوميًّا؛ لتدوين الصادرات والواردات والمبيعات، وعرضها في آخر الأسبوع على «أبو حمد» مالك المصنع.

كان النسق واحدًا ويتكرر أسبوعيًّا. فاعتدت على ساقية العمل، وبعد أقل من سنة حينما راودني حلمي السابق بالبيت وبفكرته الأسطورية التي تربطنا بجدرانٍ مادية تمزج بين الأمان والخلود، قدمتُ على إجازة، وفي زيارتي السريعة لمصر، أعطيتُ أبي كل مدخراتي ليُشرف مع الأسطى صابر على بناء طابق آخر في بيتنا ليكون خاصًّا بي، وكانت هذه هي الشقة التي كنا نسكنها قبل هدم البيت كله.

توقعتُ أن يقصّ عليّ ما حدث معه في الكويت، فقد كنت قرأتُ ذلك من قبل في أجندته الخاصة، لكني كنت أود سماع الحكاية منه.

لكنه لم يُكثر في حديثه عن الكويت، وما حدث هناك، فتشكّكت في كونه يعلم أنني فتحت خزانته وأتممتُ قراءة كتاباته، فقد كتب بعد عودته من العراق بيومين فقط عن تلك المأساة التي حدثت له في الكويت.

طلب مني أن أتركه يستريح قليلًا وخلدَ في نومٍ هادئ وطويل لم ينمه منذ زمن بعيد.

خرجت من الغرفة متأملًا حديثه عن مهنته التي رغب في استمرار مُزاولتها، وتذكرتُ حينما أنهيت تجربة عملي الأولى بكل ما شابها من لغَط، قراري بالبدء في عمل يتيح لي استعراض مهاراتي، فلم يكُن هنالك أنسب من تلك المهنة التي يُصدّر أربابُها أنفسَهم كفنانين

لمجرد أنهم يملكون الصورة الكليشيه للفنان، يمسكون الفرشاة، وملابسهم غارقة في الألوان. هذا بالإضافة للمجهود البدني الذي تتطلّبه المهنة، فتتمكن من اللعب بين استعراض الحس المرهف للفنان، والفحولة التي يضفيها عليك العمل.

بدأتُ العمل مع أحد معارفي النقاشين كمساعد له، وبالفعل أنجزت معه عدة شقق ومحلات، إلا أن ذلك لم يستمر كثيرًا؛ بسبب بدء الثانوية العامة، لكن ظلت تربطني علاقة ودّ بتلك المهنة، باعتبارها أولى أشغال أبي، وما تملكه من وقعٍ مريحٍ على نفسي.

(٩)

٦ نوفمبر ١٩٩٠

صباح ٢ أغسطس ١٩٩٠ اجتاحت قوات الحرس الجمهوري العراقي الكويت بتوجيه من صدام حسين، الذي كان يُعاني من تخبط وفوران كجمَل رأى نصل ذبحه، بعد انتهاء حربه الخليجية الأولى ضد إيران، فقد كانت نهاية خائبة مُحمّلة بالخسائر المادية والمعنوية، حيث إن حرب السنوات الثماني، التي عُدّتْ الأطول في قرن الحروب، آلت إلى ترسيم الحدود كما كانت عليه عند بدء الحرب، آلت إلى ذلك بعدما خسر صدام جميع موانئ البترول في الخليج، إضافة إلى التكبل بديون لعدد من دول الخليج، وآخر ما يهمه فقد قُتِل ما يقرب من نصف مليون جندي عراقي.

بدا أن الرئيس القائد كان يخشى من انفلات زمام القيادة، وهو الذي اعتاد كرجل عسكري أن يكون الآمِر الناهي،

فحينما بدأت طلبات الديّانة، وعلى رأسهم الكويت بنصيب الأسد، بسداد الديون، خلع ثوب الحرب، وارتدى ثوب حامي الحمى، زعم أنه خاض حربه ضد إيران كحارس البوابة الشرقية للوطن العربي، الذي كان يتشظى بسبب صدام من جهة، وبسبب الاحتلال الإسرائيلي من الأخرى، بينما كانت مصر تعاني من استقرار مبارك الزائف وذروة حُمّى الإرهاب.

حاول صدام العبث بماضيه القريب، في محاولة منه للتنصل من معاهدات ترسيم الحدود مع الكويت، وإعلان استقلالها الرسمي؛ وذلك لاسترجاع الكويت تحت طوعه، ليحل نفسه من سداد المديونية الضخمة، كما ينتفع من موانئ البترول الكويتية بعد خسارة موانئه العراقية وشلّ حركة التصدير في العراق. فشن حملة دعائية ضد الإمبريالية الغربية، التي اقتطعت الكويت من العراق دون وجه حق، وخلط الأوراق للانتفاع من كل القضايا على الساحة العربية، بتأطير دور الإمبريالية الغربية في تمرير الاحتلال الإسرائيلي، وتخدير الساحة العالمية عبر طمس هوية الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وغير ذلك من تلك الرؤى والمقولات التي يُظنّ أنها حكمة تدل على بصيرة الزعيم الخالد.

فشلتْ كل خدع صدام في استمالة أي طرف، كل ما هنالك أن الكويت تنازلت عن جزء من ديونها، في محاولة لدعم الاقتصاد العراقي للنهوض مرة أخرى، ويبدو أن ذلك كان أقل مما يرجوه الرئيس القائد، فأصدر تعليماته لقوات الحرس الجمهوري بالتقدم واجتياح الكويت، ومرر ذلك تحت غطاء حماية البترول العراقي، الذي اتهم الكويت بسرقته عبر تقنية حفر تسمح لها باستخرج البترول العراقي من حقل آبار

مشترك بين حدود الدولتين، وأكدت دراسات مسئولي صدام أن البترول المسروق يُقدر بأكثر من مليارَي دولار.

جاء اجتياح الكويت كخبرٍ مفجعٍ لكل الدول العربية، التي وقف بعضها على الحياد، بينما انضم البعض الآخر إلى الجانب الكويتي مؤكدًا حقه في الاستقلال. وباحتدام الضغط العربي على صدام، قام بطبع كلمة «الله أكبر» على علم الكويت، لاستمالة الفصائل المعارِضة وعلى رأسهم «الإخوان المسلمون».

كان اجتياحًا صادمًا بحق بالنسبة للكويتين والأجانب والمغتربين هناك. تبعه عمليات سلب ونهب للمحلات التجارية، وتخريب للمنشآت العامة، والأفظع اعتقال الآلاف من الكويتين وعدد كبير من المغتربين، وتنفيذ أحكام إعدام دون محاكمات. ثم جاء قرار تشكيل حكومة انقلاب كويتية صورية موالية للعراق، لتُعلن تلك الحكومة في بيان رسمي اعتبار الكويت المحافظة العراقية التاسعة عشرة.

فُقِد الكثير من الأسرى والمعتقلين في ذلك الحين، وُجِد البعض كجُثث في مقابر جماعية، بينما البعض الآخر لم يُستدل على جثثهم إلى وقتنا هذا.

كنتُ حينها أعمل مثل كثير من المصريين والأجانب، تحت كفالة أحد الكويتيين، عملت محاسبًا في أحد مصانع ألعاب الأطفال، التي كان لها رواج كبير في السوق الخليجي. كانت المعيشة في الكويت موترة، بسبب الصراعات الدائمة بين السُّنة والشيعة، وإن بدت لي صراعات جوفاء، فبين حين وآخر، نسمع عن خناقات تنشب بين فلان وعلان، وقطيعة بين مالك المصنع، وعدد من الموزعين، بسبب دعم إيران

في حربها ضد العراق، وكانت صور صدام موزعة في كل أنحاء المصنع، وفي المنازل. وكنا كمغتربين نغُض بصرنا وسمعنا، ونكتم أفواهنا عن تلك الصراعات التي لا طائل منها، ونحفظ عن ظهر قلب سِر وَأْد أي نقاش: «إحنا جايين ناكُل عيش». ورغم التوتر الذي تُضفيه تلك الصراعات إلا أنه كان من السهل مراوغتها وتجنبها، عكس صراعات أخرى ومهانة كان يتعرض لها المغتربون.

كنتُ وحدي، وكان للغربة طابع واحد في كل مكان؛ جفاء، وصمت، وجشع تحت شعار: «لو تقدر تاخد حاجة، ماتسبهاش لغيرك»، وحرص أكثر من اللازم. كان ذلك غريبًا عليّ، بعد أن اعتدتُ أن الأموال لا تُجمع وتُكدس، أنت فقط تعمل لتتحصل عليها ثم تصرفها، ولا شيء غير ذلك.

كنا نحيا في جو مُشبع بالخلافات السياسية، لكن لم يتوقع أحد، ما استيقظنا عليه صباح يوم ٢ أغسطس ١٩٩٠. دخلتْ قوات الجيش العراقي المصنع، وكانت صور صدام درعًا حاميًا لنا من طلقات الرصاص، لكن ذلك لم يصدهم عن تخريب المصنع وحرق المخزن، وكان أبو حمد مالك المصنع في ذهول تام؛ لأنه كان داعمًا وفيًّا للرئيس القائد، ويظنه صديقًا مخلصًا له وللكويت. خُتِم الهجوم يومها باعتقال كل مَن في المصنع، ونُفِّذ حكم بالإعدام رميًا بالرصاص في واحد منّا، كان ضمن مُعارضي الغزو العراقي.

لم أُقاوم، ولم يُقاوم أحد، بعد تنفيذ حكم الإعدام، وتم اقتيادنا إلى إحدى المدارس التي تحولت إلى معتقلات. انقطعت كل وسائل الاتصال، أُغلقت البنوك، تجمدت الأرصدة، حُظِرَ التعامل بعملة الكويت. حاولنا الاتصال بأهلنا في مصر

لكن استحال الوصول. بدأ تحقيق موسّع معنا حول هوية كل منا وآرائه السياسية والفكرية، ومدى ولائه لصدام، ولغرابة الأسئلة، تذكرت التحقيق الذي فلت منه، كما ظن أبي، حينما أخفاني إثر اغتيال السادات. لم أعرف حينها موقف مصر من الغزو العراقي، فشرع الجو المفعم بالعنف يغزو خيالاتي، وأسأل هل هناك اتصال بين الطرفين المصري والعراقي؟ وهل لي ملف بالأمن المصري من الأساس؟ وهل هذا سبب اختطافي؟ تساؤلات لا تبدو الآن منطقية، لكن حينها عندما انفرد بنا حر صيف الكويت، وجنود صدام، كانت تساؤلات في صميم المنطق.

بعد ما يقرب من أربعين يومًا من النوم في فصول المدرسة – المعتقل، لم يهوّن عليّ سوى بطانية كنت اشتريتها ليلة يوم الاعتقال، ولم أتركها لخراب المصنع، مُصرًّا على أخذها معي، كنت أفردها وأنام عليها بدلًا من النوم على بلاط الفصل. في منتصف سبتمبر، تم الإفراج عن البعض والأمر بترحيل البعض الآخر إلى العراق. وكنت ضمن المرحّلين إلى العراق.

تم شحننا في سيارة نصف نقل بصندوق خلفي متوجهين شمالًا نحو العراق. عند الحدود أوقفنا كمين في قلب الصحراء، وأكد الضابط المسئول على وصول إخبارية عن تسلل بعض عناصر المقاومة في سيارات ترحيل المغتربين. استمر التفتيش، سيارة تلو الأخرى، ونحن ننتظر. ثلاث ليالٍ مبيت في عراء الصحراء دون أي إمدادات، وجاء ردهم دائمًا أن الإمدادات المرسلة بالكاد تكفي حاجة ضباط وعساكر الكمين. أفرجوا عنا واستأنفنا الرحلة إلى الشمال.. إلى العراق.

تسلمتنا الشرطة العراقية، التي احتجزتنا بدورها في مدرسة أخرى تم تحويلها إلى ملجأ للوافدين من الكويت؛ مصريين وهنود وخلافه. كان الطعام نادرًا ما يُشبع. وجو العراق مخالف لحر الكويت، فتأكدتُ من قيمة البطانية التي تمسكت بها كثمرة ضياع ثلاث سنوات، كنت ألفّ نفسي بها، نصفها تحتي يحميني من البلاط، ونصفها الآخر فوقي يحميني ليلًا من البرد.

أُجريت التحقيقات مرة أخرى، وتم اجترار نفس الأقوال المزخرفة حول الرئيس القائد، وكلّ منا يأمل في مكالمة تليفونية لأهله بعد انقطاع لمدة شهرين، أو معلومة عما تقوله حكومة العراق عنا، هل عدونا من ضحايا الحرب، أم من ضمن الرهائن؟ هل أعلن الأهالي الحِداد؟

بعد أسبوعين من احتجازنا في الملاجئ والمعتقلات والتعذيب لنيل أي معلومة عن المقاومة الكويتية، التي لم يبخل أي منا عن قول ما يعرفه عنها، ولم يتصنع أحد الذكاء، لكن الشرطة عـادة، وفي كل مكان، تحتاج إلى المزيد. في صباح يوم ١٠ أكتوبر؛ أي بعد شهرين وثمانية أيام من الاختطاف، أتت بُشرى ببدء ترحيلنا إلى بلادنا، على أن يتم ذلك على دفعات، استقبلنا الخبر بالتهليل والتكبير، والهتاف الذي لم ينقطع عند جمع المصريين: يعيش صدام حسين.. يعيش الرئيس القائد.

ثَقُلَ مرور الأيام، ومُرّ الانتظار، فلا أحد يعرف يومه، أو آلية الترحيل أو الأولوية لمَن على حساب مَن! كان عددنا يقل ببطء شديد لا يكاد يُلاحَظ. جاء دوري يوم ٣ نوفمبر بعد ٩١ يومًا من الاختطاف، بعد ٩١ يومًا وليلة بين الصحاري

والمعتقلات، والتخويف والتعذيب، واستخراج الكلمات عنوة، والمعلومات الخائبة، والمدح الكاذب.

أعطوني، ومَن معي، فلوس كمنحة من الرئيس القائد، أو كتعويض عما فُقدَ في الكويت. لا يدري صدام أن ما فُقِدَ كان أكثر بكثير من تلك الدنانير. فقد فَقَدتُ ثلاث سنوات من عمري كنت أكِدُّ فيهم كغريب، بعد أن قاومتُ كثيرًا المجيء إلى الكويت، متمسكا بمهنتي الأولى التي مارستها كفنان لعشر سنوات، وخضعت لمؤشر المكانة والوجاهة الاجتماعية، وكما ظل يردد الجميع: «يعني هتفضل طول عمرك نقاش؟!». خسرت الماضي البعيد، أما الماضي القريب فقد أهلكه صدام، وانتظرتُ المستقبل على هيئة فتات الزعيم القائد. ألهذا الجنون سال العرق وبُذِلَ الجُهد؟!

وصلتُ القاهرة مساء الرابع من نوفمبر، كانت في حالة طوارئ، والمطار ممتلئ برجال الأمن، أنهينا الإجراءات وقابلنا تسهيلات جمّة، كما وُعِدنا بتعويضات مالية عما صودر في بنوك الكويت، خرجت من المطار ولم أرغب في تحويل الفلوس العراقية، بل ظللتُ محتفظا بها رفقة البطانية التي عُدت بها كذكرى للنجاة. لم أبذل مجهودًا كبيرًا لإقناع سائق تاكسي بتوصيلي إلى الإسكندرية، والدفع عند الوصول، فبعدما عرف أنني ضمن العائدين من العراق، لمعت عيناه في شغف لسماع الحكاية، التي كانت وقتذاك حديث الساعة، والكل ينتظر ما سيفعله مبارك لأبنائه المحتجزين في العراق. خاب رجاء السواق، فأوجزتُ الحكاية في كلماتٍ قليلة، ونمت طوال الطريق.

وصلتُ البيت فجر الخامس من نوفمبر. فكرتُ قليلًا، بينما أقف تحت البيت أن وقع المفاجأة على أمي قد يُسقطها

ميتة، فصعدتُ إلى شقة أخي ليُمهّد لها، ويُحاسب السائق قبل ذلك، طرقتُ الباب، وحين جاء صوته، همست آمِلًا أن يراني من عين الباب، فتح الباب فارتميت في حضنه، وظل يتحسس وجهي كأنه لا يُصدق كوني ما زلتُ على قيد الحياة، نزل يُحاسب السائق، وجلست على درج السلم، فخرجت خطيبته، التي صارت زوجته! كان موعد زواجه محددًا خلال الصيف لا أذكره بالضبط، لكن كيف تزوج وفرح وأنا في تعداد الموتى؟ ألهذا الحد يتساوى الوجود والغياب؟! إن كنت غائبًا ميتًا فالحياة تستمر والزواج يتم، وإن كنت غائبًا حيًّا فسأعود ولا داعي لتأجيل شيء! أهذه هي المكافأة التي تجازيني بها الحياة؟ ليست مساحة شاسعة رمادية بين الوجود وبالغياب، ولا خطّ فاصلًا بينها يصعب تحديده، لكنهما ينصهران فيصيران شيئًا واحدًا؛ وجود مثل العدم.

نزلتُ معه إلى أمي وزوجتي، فاستُقبلت بالبكاء والنحيب والضحك على حالي الرَّث، وملابسي المهترئة، وشعري المنكوش، والبطانية التي رافقتني طوال الأشهر الثلاثة.

رفقة أنوار الصباح كان الجميع في بيتي يحتفلون بعودتي؛ ظنًّا منهم بأن الأسير وصل سالمًا.

هاشم المأمون
سيدي بِشر ـ الإسكندرية

ذكّرتني قراءة كلماته بما قاله أحد أصدقائي؛ أن أبي مِثال صارخ لشخصٍ سحقته الحياة، حيث إنه كان يملك وعيًا وحسًّا بمُجريات

الأمور من حوله، وله تحليلات خاصة كان يمكن صقلها بالممارسة والاطلاع، لكنها اندثرت تحت وطأة العمل.

كانت الكلمات كاشفة مرعبة كالسقوط في بئر الموت ثم العودة إلى الحياة، وكان حديثه الموجع الموجّه إلى صدام، تجسيدًا لحديثه الموجّه إلى الحياة. كما كشفت الكلمات شيئًا بداخله لم يفصح عنه أبدًا تجاه أخيه.

كان الشيء اللافت بالنسبة لي حينما استرجعتُ قراءة تلك الكلمات بعد وفاة أبي أن تاريخ كتابتها؛ أي السادس من نوفمبر، هو نفسه تاريخ وفاة أبي، بعد كتابة تلك الكلمات بسبعة وعشرين عامًا.

(١٠)

كانت بداية الثانوية العامة، بنهاية صيف ٢٠١٠، تُبشر ببدء فترة منغلقة، إذ إنني حاولتُ الاستعانة بروتين إلزاميّ في العمل خلال السنة السابقة، للانتظام في المذاكرة، واشتد الأمر، بفرض نظام صارم لعدد ساعات المذاكرة اليومية. فتوقفت عن القعدة في المقهى، وعن لعب الكرة، ولم يكن لي سبيل للترفيه سوى طريقي من سيدي بِشر إلى الورديان، كلما احتجت أن يشرح لي هيثم بعض الدروس المستعصية على فَهمي.

كان فرض ذلك النظام الصارم، كما أوضح لي هيثم، ضامنًا للنجاح، وكان النجاح هو مُخلصي من تلك المآسي المحيطة بي، إلا أنه كان يطلب مني دائما ألا أضع نفسي تحت ضغط أكثر

من اللازم فتكون النتائج عكسية، لكنني كنت أخشى التراخي، وأن تنفرط الأمور مني، ولا أتمكن من لمها. فقد كنت لا أزال لم أتقبل كوني طالبًا، ولم أعتَد العزلة التي تفرضها المذاكرة، وتجلّى ذلك الرفض بعد اعتيادي على العمل والكسب، وبانتهاء الفلوس انقضت أيام التميُّز، فعُدتُ مرة أخرى إلى سابق عهدي، أصرف من جيب أبي.

مع بدء مرحلة الاختبارات التجريبية، مع بداية يناير ٢٠١١ كنت أشعر بزيادة الضغط، حيث إن درجاتي لم تكن كما توقعت، وكان يتطلب هذا بذل مجهود أكبر في مراجعة الدروس السابقة، واستذكار الدروس الجديدة. فكنت أزيد من ساعات المذاكرة اليومية، وأسهر طوال الليل حيث الهدوء، وانعدام عوامل التشتت. لكن سهري كان يزيد من تفكيري، وحيرتي. فكنت أفكر في ذلك المستقبل الذي ينتظرني، وأتخيل شكله إن وُفّقت في تلك السنة، وإن لم أُوفّق. وما هي الفُرص المتاحة بعد الثانوية، والكليات الممكنة، رغم أنني كنت قد حسمت أمري تجاه كلية الهندسة مثل هيثم. إلا أن الأفكار كانت تختلط عليّ بلا هدف، وبلا سيطرة مني.

كان ذلك الشتاء هو موسمي الأول مع التدخين، فقد كان الصاحب الوحيد، والمسيطر على نوبات التوتر التي كان تنتابني بين حين وآخر. وأعتقد أنني كنت مؤهلًا لتلك العادة الكريهة، بسبب اعتيادي على القعدة في أوساط المدخنين، والحشاشين، على المقهى، أو رفقة إبراهيم، ابن عمي.

بنهاية يناير، ومع اندلاع الثورة، كنت حينها بالكاد أعِي بعض التفاصيل السطحية عن الحياة السياسية في مصر، فقد كنت أعرف اسم وزير الداخلية؛ حبيب العدلي، وأنه المسئول عن أقسام الشرطة، كما كنت أعرف ما قام به أحمد عز من تزوير لانتخابات مجلس الشعب ٢٠١٠ بنتيجة ٩٩٪ لصالح الحزب الوطني، وكان ذلك مجموع الثانوية العامة الذي أحلم بتحقيقه.

شهدتُ، من داخل مقهى التجارية، اقتحام وتدمير مقر حي المنتزه، من قِبَل جماعة من الهائجين كالثيران. كما شهدت أبواب المقهى وهي تُغلَق بالكامل لعدة أيام لأول مرة في حياتي.

عمّت حالة الفوضى، وانتشرت الشائعات عن جماعات مسلحة، ادّعى البعض أنهم من بلطجية النظام، وأكد البعض الآخر أنهم هاربون من السجون، إلا أننا لم يكن يشغلنا أيًّا من ذلك، فكانت حياتنا الطبيعية اليومية تعجّ بعدد لا حصر له من البلطجية، ولا تخلو أي أسرة من فرد على الأقل من واردي السجون. فما كان يُذاع على أنه مخاوف تُثير الريبة، وتفكّك للحياة الطبيعية وانعدام الحالة الأمنية، لم يُشعرنا بتغيير في المعيشة سوى المشاركة في اللجان الشعبية. فقد قام عدد من صِيّع وبلطجية المنطقة بتجميع أنفسهم والوقوف بالأسلحة البيضاء عند ناصية كل شارع، وذلك للوقوف على الحالة الأمنية للمنطقة. ومتابعة المارة والكشف على البطاقات الشخصية، ورُخص السيارات. وكانت تلك فرصتهم للانتقام من ضباط الشرطة، والتأكيد على أنهم قادرون على ممارسة تلك المهنة بالفطرة.

أذكر خالد جودزيلا؛ أحد أهم رواد البلطجة في شارعنا، بجسده الضخم، مُفتقد المرونة، الذي كان لا يُمكّنه من المراوغة في العراك لكنه كان ينقضّ على فريسته، فيجهزها تحته حتى تنقطع أنفاسها. سُجِنَ ثلاث مرات، تعاطٍ واتّجار ومشاجرة. كانت تلك الأيام مناسبة بالنسبة له لإنشاء شركة الحراسات الخاصة التي كان يحلم بها هو والمرحوم أبوه، فقد كان أبوه يعمل في كلية الكلاب كمدرب لكلاب الحراسة. لكنه طُرِدَ حينما عُرِفَ أنه يستبدل الكلاب المستوردة بما يشبهها من الكلاب البلدي المتسولة في الشوارع. تلك الشركة لم تخرج إلى النور، كما آلَ المآل بخالد إلى البلطجة في هوجة هدم وبناء العقارات، فاستأجر دكانًا ووضع عليه يافطة باسم شركة الكلاب الضالة للمقاولات، وكان يُجبر أي مقاول على إعطائه خردة البيوت قبل هدمها، كما كان المسئول عن توريد عُمال الهدم، مقابل عمولة، يفرضها عنوة على المقاولين، وذلك مقابل السماح لهم بإتمام أعمالهم وبناء الأبراج.

شاركتُ مرة واحدة في تلك اللجان؛ إذ سحبتُ سكينة من سكاكين المطبخ، ووضعتها في حزام البنطلون، ثم نزلت للسهر معهم، فوجدت إبراهيم وأسعد وعددًا من المعارف والأصدقاء، وكان خالد يمسك بسيف طويل، يشرح لهم أفضل تقنيات إمساك السلاح، وكيفية التمكّن منه، والتعامل به في المعارك. كما يوضح لهم أبرز السيوف التراثية الموجودة في المنطقة، والتي كانت مُخبأة خوفًا من طمع ضباط البوليس، وعلى رأسهم سيف عم موسى، الذي كان يشبه سيوف الساموراي.

مللتُ من أحاديثهم المعبَّأة بالمبالغات، كما ضقتُ بالمذاكرة، فتمشيت عبر الشوارع الجانبية إلى أن وصلت إلى شريط القطار، فتجاوزته إلى شارع محمد نجيب ومنه إلى البحر، واصطدمت باللجان المنتشرة في الشوارع الرئيسية، وإن كانت تختلف قليلًا عما يحدث في شوارعنا الضيقة، فقد كانت خليطًا من بشر مُنتشين بفعل الحدث الثوري، وبلطجية أرزقية. فتارة تُعامل باحترام وتارة تجد مَن يعاملك بحدة وعنف وكأنك سرقت مال النبي.

كانت الدنيا تنتفض وتثور وأبي كما هو يخرج لشغله مع بداية كل مساء ويعود في الصباح، ولا يُحرك ساكنًا لما يحدث، يعيش في عالمه غير مبالٍ، فقد تمكّن منه يأس قديم عميق، كوَّن داخله يقينًا بأنه لن يغير الكون، وأن رأيه مهما كان قيمًا فلا قيمة له، فأصبح يتجنب الحديث، والجُمل الرنانة، وكأنه يتجنب الحياة.

تحقق لي أول مكسب من مكاسب الثورة، بعد خلع مبارك، إذ تم إلغاء ما يقرب من ربع المناهج لجميع المواد الدراسية، وكان ذلك دافعًا لتغيير خطة المذاكرة، حيث تم إنهاء شرح المناهج في وقت مبكر، وزادت المدة المخصصة للمراجعات.

أنهيتُ السنة الثانية بمجموع ٩٥٪، وكان عليّ تكرار الحصول هذا المجموع في السنة الثالثة، لضمان دخول كلية الهندسة. كنت أتوقع مجموعي، لكني لم أُفصح به قبل ظهور النتيجة. رأيتُ فرحة أبي الحقيقية، وكانت المرة الأولى التي أراه فخورًا، منتشيًا، ضاحكًا، متألقًا، كانت المرة الأولى التي أشعر بالحياة تدبّ في روحه.

زاد إقبالي على الدراسة في السنة الثالثة، لاستكمال ما بدأته، ولم تكن فرحتي كبيرة كأبي، حيث كنت على دراية أنني لم أصل بعدُ إلى ما أطمح إليه.

خلال إجازة الصيف، حاولت المشاركة فيما يُسمى بالنشاط السياسي، وقد كان له بريق في تلك المرحلة، لكنني سرعان ما عزفت عنه، إذ إنني برومانسية الحالم، لم أتقبل الحزبية التي وجدتها، فحينما شاركت في اعتصام بميدان سعد زغلول بمحطة الرمل، وجدت أن الجماعات الإسلامية يأتون من منطقة بحري، بينما تأتي القوى الثورية الأخرى من جهة سيدي جابر، ولم أكن أعي وقتذاك الفرق بين العلماني والاشتراكي والليبرالي والنيو ليبرالي، كما أشار أحد المعتصمين وهو يُعدّد القوى الآتية من سيدي جابر، وحين سألته عن الفرق، قال: «دي قصة يطول شرحها»، ثم اختفى. لكنني كنت أعرف الجماعات الإسلامية، وإن لم أكن أعلم وقتها سوى أنهم المسئولون عن المسجد المجاور لبيتنا، وأنهم مُنظمو صلاة العيد، ودورات كرة القدم، ودروس العصر يوم الجمعة التي لا أذكر منها شيئًا.

كانت إجازة قصيرة، وبدأت السنة الثالثة، كان أبي مدفوعًا برغبة في الحفاظ على النجاح المُحقّق يحاول تقديم أي مساعدة ممكنة في ظل استمرار نزيف مصاريف الدروس الخصوصية.

احتدم الحدث الثوري، وكان كل طالب في الدروس يسعى لإظهار بريقه، بمراهقة تتغلب على مراهقة سنين المدرسة السابقة. ورغم ذلك كانت فترة منعشة مفعمة بالنشاط والحياة. كنت

لا أتقبل طلاب الجماعات الإسلامية والإخوان المسلمين؛ بفعل الاحتكاكات الثنائية، وحالة التعالي، فقد كانوا في حالة نشوة كلحظات القذف بعد الاستمناء بسبب السيطرة على مجلس الشعب، والمُضيّ في انتخابات الرئاسة، فكانوا يترفعون عن النقاشات التي كنا نتجادل فيها حول السلبيات التي تحدث، إلا أن حججهم كانت دافعًا للتعمق في فهم الأمور، لكن فهمي ذلك لم يُحيّدني عن مقتي لهم، وتدريجيًّا صرت أنفر من أي شخص يتحدث عن الدين باعتباره أي شيء سوى كونه سلوكًا فرديًّا.

أنهيتُ السنة الثالثة بمجموع أقل من سابقتها ٩٣٪، لكن المجموع الكلي كان كافيًا للالتحاق بكلية الهندسة. فقد زاد تشتتي خلال تلك السنة؛ بسبب الاهتمام بالشأن العام، كما أنني خلال تلك السنة تبدلتْ وتعمقتْ علاقتي بسَحر التي أخذتني في عالمها دونما إرادة رفض مني.

كانت فرحتي يوم ظهور نتيجة التنسيق فريدة وغير مسبوقة، استكشفتُ معها معاني جديدة للسعادة لم أكُن عرفتها أو اختبرتها من قبل. واستمرت البهجة تعمّ وجه أبي وحياته، وانتشى في حالة ثورية، وإقبال على الحياة. فحينما اتصلت به لأخبره بالنتيجة، كان في الدكان، كنت أتعثر في النطق بفعل البكاء، وسمعت صوت دموعه وهو يحتضني فور أن لمحني عند باب الدكان، وكانت تلك ضمن مرات قليلة دخلت فيها ذلك المكان. رأيتُ فرحته وهو يقف بطوله المهيب كإلهٍ داخل المحل ينادي على القهوجي ليوزع الشربات، وحماسه وهو يحتضن معارفه ويشكرهم حينما كانوا يمدحونه، ويُثنون على خُلقه أمامي.

بنهاية اليوم استرسل معي في حديثٍ غير معتادٍ عن سعادته، وخَتمَهُ بأن أكد لي أنني نجاحُه الوحيد الذي أصاب الطريق وسط كل إخفاقات حياته.

(١١)

بينما أستعد لدخول الجامعة، خلال صيف ٢٠١٢ جاء أبي ليعرف رأيي فيما أجمع عليه أعمامي بشأن هدم البيت.

حوّل هدم البيت بُحور الفراغ التي بيني وبينه إلى محيطات.

رغم الألم الذي عانى منه كلّ منا، إلا أن نهجنا في مداواة الألم كان مختلفًا. فقد كان البيت الذي انتقلنا إليه لحين بناء بيتنا الجديد صغيرًا ومتهالكًا يعكس ضيق المعيشة الذي آلت إليه حياتنا. كوّمنا داخله العفش، آملين سرعة العودة. فقد كنّا ننفر منه، ونرجع إليه بالكاد للنوم. زاد الوقت الذي يقضيه في الدكان، بينما قضيت أيامي في استكشاف عالمي الجديد.

كان البلد برمته في معجنة ما بعد الثورة، وكذلك كانت الجامعة. فأقضي يومي بين حضور المحاضرات، والمشاركة في الفعاليات السياسية، والقعدة على المقهى رفقة طلاب الاشتراكيين الثوريين، وأختم يومي في مقرات الأحزاب المختلفة؛ في محاولة ساذجة مني لفهم برامجهم وتوجهاتهم.

كانت المقرات دائمًا مزدحمة، تعج بعدد مهول من العارفين ومحددي الهويات، وعدد لا يُذكر من التائهين. يدّعي معظم

مُريدي الأحزاب أنهم أنصار الثورة ومفجروها، وأنهم الأحق بها من غيرهم، ويعددون مواقفهم ومشاركاتهم في النشاط السياسي من قبل الثورة، حتى لو اقتصرت تلك المشاركة على المرور من أمام بوابة قسم الرمل. وفي خضم الصراع حول تلك الأحقية المزعومة بالثورة، تأججت الخلافات الشخصية وظهرت الشلل، وتحولت مقرات الأحزاب السياسية إلى صالونات للتعارف وصيد العرسان والعرائس، وجمعيات خيرية، تنظم فعاليات عيد الأم، ويوم اليتيم. بينما عانى المثقفون الحقيقيون المنخرطون في هموم الشارع، من عدم وجود أي كيان حقيقي يجمعهم، ويُفرغون فيه طاقتهم.

لم يستهوِني، ويستفز عقلي، سوى نقاشات تجمعات اليساريين؛ إذ بدا لي أنها تنم عن وعي حقيقي، وحس تأملي مبهر، فقد كانوا أول مَن سمعتهم يتحدثون عن مدى نباهة فكرة اللجان الشعبية، وكونها بديلًا حقيقيًّا للبوليس. تبين بعد ذلك أن وعيهم بلا تجارب حياتية، فقد رأيتُ في أغلبهم تمرد المرفهين، بينما كنت أعاني من البحث عن عمل يضمن لي كفاف الحياة بجانب الدراسة، رغم ذلك لم أفقد أبدًا ميولي إلى اليسار.

دومًا كنت مهمومًا بالعلاقة بين العمل والحياة، ولا أظن أنني تصورت حياة بلا عمل، أو بلا إنجاز، ولا أظن أنني أحب حياة التنابلة، لكن طبيعة العمل هي ما كانت تحدد تلك العلاقة.

وكان سبب ذلك الهم، هو علاقة الترابط التي رأيتُها بين مسار حياة أبي وعمله؛ فقد كان عمله هو المؤثر المباشر لما آلت إليه

حياته كلها، وعلاقتنا بالأخص، بداية من إخفاقه في عمله بالكويت، دون خطأ منه، وصولًا إلى سَحْله في العمل بالدكان لأكثر من اثنتي عشرة ساعة يوميًّا.

عملتُ مع أحد أقاربي في شركة للاستيراد والتصدير مسئولًا عن المخزن. وكان ذلك آخر عمل لي قبل بدء الدراسة الجامعية، استكملت بعد ذلك في صيف ٢٠١٣ وكنت حينها أعاني من بوادر اكتئاب، وأُجاهد محاولًا استيعاب موقعي في الحياة بعد خوض عراك متصل حول الحياة الثورية والسياسية، كما كنت أرغب في تجاوز الشعور بالانسحاق الذي كنت أمُر به.

فبدأت العمل في مخبز كبديل لآلة غبية لم تُصنّع بعد. يحضرون أمامي قفصًا ممتلئًا ببسكوت العيد، فأقوم بتوزيعه على علب صغيرة، وزن العلبة واحد كيلوجرام. وهكذا تتوالى الأقفاص والعلب طوال تسع ساعات يوميًّا. كان العمل كسجن وسط مجموعة من السلفيين وحديثهم المستمر عن أفكارهم البالية، وتناقضاتهم الفجة بين الكلام والسلوك. كان ذلك تجسيدًا حقيقيًّا للانسحاق الذي عانيتُ منه، جاء ليجرف كل معنى إنساني، وكل معنى لاستحقاق الوجود والدفاع عنه. فقد كنتُ أرى العمال وهم يمتنعون عن تشغيل الأغاني ويدّعون الورع أمام الشيخ صاحب المخبز، كما كنت أراهم وهم يشربون الحشيش بعد صلاة العشاء.

لم تستمر المعاناة غير أسبوع واحد. حينما اتصل بي أحد أصدقائي، وقال إنه يحتاجني معه في شغل ما. كان اتصاله بمثابة انتشال من قاع البلاعة.

بدأت أتعرف على طبيعة العمل الجديد، وكان مختلفًا عن كل ما سبقه، يمكن تسمية تلك الأشغال، بالأعمال الأمريكية الصنع، التي تسللت إلينا في غفلة. كان المحل عبارة عن جزء صغير، داخل مجمع مطاعم «فوود كورت»، لبيع أنواع مختلفة من السَّلَطات. زبائنه من رواد النوادي الاجتماعية، وطلاب الجامعة الأمريكية والجامعات الخاصة، عالم جديد بعيد كل البُعد عن طلاب كلية الهندسة، ومصلّحي التلفزيونات في محل الإلكترونيات، وجلافة شغل النقاشة، وأبعد ما يكون عن جماعة سلفيي كحك العيد.

اعتدتُ العمل، وبدأت الدراسة، ولم أنقطع عنه، متمسكًا بحالة النشوة والانفتاح على عالم أوسع، ولو أمكن الجزم بأن هناك شيئًا مُضافًا في تلك الفترة فهو الوصول إلى حقيقة أن الحياة أوسع مما أظن، وبها كَمّ من الرؤى والأفكار والأنماط أكبر من اختزاله وتنميطه في عدة أشكال وقوالب بسيطة ساذجة.

استمر العمل إلى أن انزعجت من عدم امتلاك إلا ساعة واحدة، في يومي، للقراءة أو للتسلية. كنت أستيقظ السابعة صباحًا، فأذهب إلى الكلية، ثم إلى الشغل من الخامسة إلى الحادية عشرة مساءً. اعتذرت عن الاستمرار في العمل، فقد كان شبح أبي الذي يعمل يومه كله يطاردني ويجبرني على الهروب من تلك الحياة المجحفة. عُدتُ بعد ذلك في إجازة منتصف العام لمدة شهرين ثم تركتُ هذا العمل نهائيًّا.

جربتُ في صيف ٢٠١٤ العمل كمُتَدرب في إحدى شركات المقاولات، وقد كانت محاولة موفقة لاستكشاف حياة ما بعد التخرج. وفي صيف ٢٠١٥ كان عملي الأخير قبل بدء العمل المؤسسي.

كان عملًا آخر أمريكي الصنع، ببازار بفندق الهيلتون، بدأته في شتاء ٢٠١٥ واستمر لسنتين، ولم يختلف كثيرًا عن محل السلطة، من حيث الطبقة التي أتعامل معها.

كانت النتيجة التي توصلت إليها خلال هاتين السنتين؛ أن ثنائية الدراسة والعمل شيء لا يُطاق، مهما تم تجميلها باعتبارها درجة من أعلى درجات الكفاح في الحياة، وصقل الشخصية بتجربة حياتية دسمة. تلك التجربة تُخفي في طياتها انعزالًا غير مقصود، تحجيمًا عن المشاركة المجتمعية والإنسانية، التحول من عنصر فعال إلى متابع مَلولٍ لكل الأحداث المحلية والعالمية. لكنها ولا شك كان لها جانب آخر، حيث يمكن اعتبارها خطوة تمهيدية لاقتحام عالم المؤسسات الكبرى بثقة واتزان.

(١٢)

جاء موت والدي في ٢٥ يوليو ١٩٨٨ بعد أن أتم بناء شقتي الخاصة، وكأنه ختم رسالته في الحياة. ولم يترك لي سوى صورة صغيرة له أتأملها كلما جارت عليّ الأيام.

دفعتني أمي إلى الزواج، في تأكيد أن العمر لن يمتد بها طويلًا. كما أنني قاربت على الخامسة والثلاثين، فتبين لي بالقياس إلى عُمر أبي الذي لم يُتم عامه السبعين أنني قد قضيت أكثر من نصف مدتي في الدنيا، ولم يتبقّ لي إلا أقل من نصفٍ آخر.

استمرتْ أمي تُدبر لي مقابلات مع زوجات محتملات في كل إجازة أنزلها من الكويت، لكنني رفضتُ أغلبهن، ورُفضتُ أحيانًا.

وقد كانت أيامًا مضحكة رغم أسى أمي على فشل المسعى. أذكر منهن واحدة خرجت لتقابلني في قعدة التعارف بشبشب الحمّام!

بقيت على هذه الحال حتى رأيتُ أمك صدفةً، وكان لها وقع جميل على نفسي، ذكّرتني بحسٍّ ثوريّ كان قد دُفِن بداخلي منذ سنوات الجامعة. رأيتُها في مصلحة الجوازات، بينما كنت أجدد باسبوري، استعدادًا للعودة إلى الكويت، كانت شعلة من نشاط وحركة، تدب الأرض تحت رجليها، تتحدث مع فلان، وتنهي شيئًا مع علان، ولا تكل، جميلة، ولشعرها تسريحة على الموضة، يؤطر وجهها المنمق الأبيض دقيق الملامح.

تتبعت مسارها، وسألت عنها وعن أهلها، ولا أطيل عليك، أتممنا الزواج، وبانتهاء إجازتي عدتُ إلى الكويت. استمر السفر لسنة أخرى ثم جاء صدّام بالحرب ليلقي بي من السماء السابعة، إلى أعمق نقطة في باطن الأرض.

قضيتُ معها خمس سنوات طيبة. رغم كثرة العثرات، وضيق الحال الذي لازمني منذ عودتي من الكويت، إلا أنها كانت سندًا حقيقيًّا. كثيرًا ما كنت أتمنى موتي، وبقاءها هي لك.

تضامنَت الحكومة مع مُتضرري الحرب، ووفقًا للمؤهل حصلتُ على تعيين في مصلحة الضرائب براتب واحد وتسعين جنيهًا، لم أجد بُدًّا من القبول. بعد ذلك عرض عليّ أعمامُك الشراكة معهم في الدكان، كانت الصورة الأولى للمشروع نجدة لي من ضنك المعيشة، فسعيتُ بكل ما فيّ لإتمام تلك الشراكة، وتدشين الدكان بالشكل المقبول. كنت أقضي طوال الليل في العمل

مع النقاشين والنجارين الذين كانوا من معارفي القدامي، ثم صاروا اليوم أسطوات ومَعلمين. بعد ذلك نسهر لترتيب البضاعة الجديدة، ثم نحتفل بافتتاح مشروعنا الصغير. كنت أطمح حينها أن يكبر المشروع ونعيد الاحتفال بافتتاح فروع أخرى. كان إخفاقي لكوني أطمح أكثر من اللازم.

طالما حلمتُ بامتلاك شيء كبير، لكنني لم أملك سوى البيت.

شعرتُ بغربة في محيط العمل بمصلحة الضرائب، فقد كانت المصلحة غارقة في فساد إداري يدهس كل مَن يحاول صده. كنت أخاف أن يدبر لي زملاء العمل مصيبة؛ بسبب إحجامي عن المشاركة في تلك الهوجة، فقدمتُ طلب إجازة لمدة سنة، ثم الأخرى، ومع الثالثة قدمتُ استقالتي، واكتفيت بالعمل في الدكان، وكانت الأمور حينها أكثر من ممتازة. إلا أن قرار الاستقالة كان خطأً وفشلًا في قراءة المستقبل، مُحصلته سنوات ضائعة.. بل حياة مهدرة.

أغراني نجاح المشروع الصغير لاقتراح فتح فرع آخر والحديث عن حلم بسلسلة محلات آل مأمون، لكنهم لم يتقبلوا الاقتراح، وطلبوا تأجيله حتى يقف المشروع على أرض صلبة. تبدلَت الأمور بعد ذلك، إذ إن النجاح قد أغراهم أيضًا، فتبين بعد حين أن أحدهم قام بفتح دكان آخر خاص به، وله الحق، إلا أنه كان ينقل، أو يسرق، سَمِّها كيفما تُحب، البضاعة من عندنا ليبيعها عنده، ثم فشل بعد ذلك بأقل من سنة، وترك دكانه وهو مُكبل بالديون، فارتكن إلينا كي نُسددها له. أما الآخر فقام بشراء مزرعة صغيرة، وكان يدفع قسطها من مكسب الدكان، عرفنا ذلك حينما مرض

ورقد في البيت، وأتى صاحب القسط ليطلبه في الدكان بعدما طال غيابه. أما الأخير فلم يكن يبالي بشأننا، وبدا ناقمًا على مساعدته لنا في تلك الشراكة، وبسبب تلك اللامبالاة ورطنا في ضرائب مُقدرة جزافيًّا بأضعاف أرباح الدكان. الخلاصة دخلنا في فترة الانهيار الكبير، ديون بلا نهاية للتجار وللضرائب، شعرتُ وكأن الدكان يُدك فوق رأسي، فقد بحث كل منهم عن النجاة، وتُركت وحدي يبتلعني طوفان الديون.

ضاقت بي الحياة، ولم تنفرج وتتبدل إلا يوم علمتُ بحبل أمك، زادت طاقتي، وأقبلتُ على الحياة مرة أخرى، تجاهلتُ ما علمته عن الدكان، وسعيتُ لمداواة الأمور كيفما استطعتُ. جدولت ديون التجار، ودخلت في صِدام مع مصلحة الضرائب، لمحاولة إعادة تقييم المبلغ المطلوب، وبالوساطة والرشاوى، تمكّنّا من تخفيض المبلغ إلى النصف، الذي ما زال أكبر من أن نتحمله، على ما أذكر كان أربعين ألف جنيه.

كنت مُحملًا بطاقة لأجعلك تتجنب كل العسرات التي مرتْ عليَّ، لكن الحياة لم تصبر عليّ أكثر من ذلك، وتعاملتْ مع نقمي على الضيقة وكأنه رفضٌ للحياة بأكملها. فقد جاء يوم ميلادك لتتبدل الحياة مرة أخرى من سيّئ إلى أسوأ. فحينما أتيت أنت إلى الدنيا، ليزداد تمسكي بالحياة، ويتضاعف سندي وحملي، في اليوم نفسه رحلت أمك، رحلت ورحل الجمال الصادق عن حياتي، رحل الحس الطيب الذي أرتكن إليه حينما تضيق بي الحياة، رحلت وتركتك لي، وكأنها راغبة في تخفيف أحمالي، وإيقاف نزيف السنوات المهدرة.

سَميتُك يحيى كمحاولة لمقاومة الموت والتودد إلى الحياة، رغم أن شيئًا بداخلي كان يرغب في التخفف منك، ومن كل الأحمال، يرغب في العيش وحيدًا، بلا أنيس ولا شريك، فقط العيش في انتظار الموت. وكان الدكان هو سَبيلي الوحيد للعيش كالأموات، كان كالمحرقة التي أدخلتُ فيها نفسي لأُهدر سنوات عمري الباقية.

كبحتُ نفسي عن التقرب منك لأكثر من عشرين سنة، وهذه هي وصيتي الوحيدة لك: ابتعد عن كل ما يخصني، لا تتذكر ولا تحِنّ إلى شيء.

بكينا إثر حديثه الأخير؛ فقد كان مكثفًا، لم يخُض في بواطن الأمور. فبالرغم من تهتك الحياة، فقد ظل يخشى البوح بالأسرار، لكنه قال كل ما كان عليه قوله.

تسبب ذلك الدكان أو تلك المحرقة في تأجج كراهية بداخلي لكل مَن حولي، بدءًا من أبي، وبُعده عني، مرورًا بالعائلة المنكوبة، وصولًا إلى الحياة كلها. كرهتُ نفسي لكون ميلادي سببًا في موت أمي. كرهتُ أمي لأنها أتت بي إلى الدنيا وتركتني وحيدًا.

(١٣)

جاء ظهور مرض أبي، واكتشاف خزينته السرية لينتشلاني من حياتي الضبابية؛ فصرت أتخفف من علاقاتي غير الجادة، وأتنصل من دوري الذي لم أُجِد لعبه كمهموم بالشأن السياسي. ولم يعُد لي همّ سوى محاولات التقرب منه، وإقحام نفسي في عالمه الخاص.

ذات مساء، مع بدء حرارة صيف ٢٠١٥، وجدني عند مدخل دكانه، ظنّ أن مصيبة قد حدثت، لكن لم يكن الأمر إلا رغبة في التقرب واللُّحمة الحقيقية. كان دكانًا صغيرًا في أحد الأزقة، لم يبقَ منه في ذاكرتي سوى أرففه الفارغة، وحاله المكروب، ويوم تقرر بيعه، كإعلان رسمي لفشل كل محاولات العشرين سنة السابقة في النجاة به. وقفتُ بجوراه كسندٍ وونيس، ورأيتُه وهو يتحسس الجدران وكأنها جلد خشن صلب، معبأ بشقوق الكد والشقى، وعيناه التي تلمعان بالدمع، تحدقان في كل ركن، في تأكيد بالغ على مشاعر أسى تجاه ذلك المكان الذي احتضنه أكثر من بيته، والذي طالما انهار وأُعيد بناؤه، وبين انهيار واستفاقة، انقضى عمره كحبّات عرقٍ تجففها نسمة هواء.

حاولت التغلب على علاقتنا المهترئة، المنحولة، حيث صِرنا غريبَين، حياتنا مجهولة، نخجل من الحديث، ونكتفي بالصمت ونظرات العتاب والشفقة، وإن أتى حديث يأتي كلامه إلى الداخل، وكان داخله يرى الموت، ويتكلم مع وعن الأموات، كان يحنّ إلى أمه، ويبكي وهو يقبض على صورة أبيه، مثلما بكيت وأنا أتحسس وجهه في صوره القديمة، حين كان لا تزال تدبّ في روحه الحياة.

«أبي وأمي، إن رأيتما الله، فأخبروه أنني عائد إليه، أخبروه أنني لم ألتفت إليه أو لشيءٍ غيره».

أحببتُ البحر، رغم عدم قدرتي على السباحة، فقط لحبه له، أحببت السمك وحَي «أبو قير» لأنه كان مكانه المفضل، فكما حكى لي، فقد شهد شاطئ البحر الميت جميع المحاولات الضمنية لشد

وتر العائلة، وصياغة الأحداث بشكل مُغاير في بعض تفاصيلها، أملًا في الوصول لنتيجة مختلفة، أو العودة لنقطة البداية. ربما كانت محاولات هشّة، لكنها ظلت محاولات، لم تطلب سوى الانوِجاد في تلك الحياة لإدراك كُنهها.

كنا في سهرنا غير المعتاد، وبعد التغلب على كل محاولات التملص، نجهز العشاء ونبقى طوال الليل نأكل ونلعب شطرنج وطاولة وكوتشينة، نضحك ونحكي عن الماضي البعيد، وصوت التلفزيون يسبح في فضاء الغرف، بينما نرقص على أغاني عدوية وعبد الباسط الآتية من مُسجل باناسونيك وارد الكويت.

نتحرك مع أذان الفجر في جمع كبير، وعند مدخل أبي قير نركب عددًا من الكارتات، التي كانت المواصلة الوحيدة المسموح بها للدخول إلى الشواطئ، ومع أول ضوء للنهار نكون في مياه البحر الميت. سُمِّي بالميت لأنه بلا أمواج، هادئ تمامًا كالموت. وأظن أن هذا الشاطئ لم يعد متاحًا، تحول إلى ميناء تابع للقوات البحرية.

تنتشر بيننا حالة فوران، الأبناء والآباء في البحر، والأمهات تحضر ساندوتشات الفطار، ونسحب مضارب الرَاكِت، ونُلقي بالكرة في الماء، وننفخ العوامات، وأكثر من ثلاثين نفرًا بين هنا وهناك. حتى صِرنا نمتلك الشاطئ.

يبدأ نغز طفيف قد يدفع المحاولة إلى الفشل. خلاف بين هذا وذاك، كان هذا معتادًا، ويتكرر في أي تجمع، وربما يحدث في أي تجمع عائلي، فتسري في الجو حالة توتر، يحتد الحوار، ومع ازدياد حدة الشمس في منتصف النهار نجمع أغراضنا استعدادًا للرحيل.

لا أذكر تجمعًا واحدًا مرّ علينا دون خلاف. والأمرّ من هذا، أن ذلك الخلاف فقط هو ما يُكمل معنا، أسبوعًا أو شهرًا، أو قطيعة طويلة. بينما لا يتذكر أحد منا الأحداث الحُلوة إلا مع استئناف سلسلة المحاولات من جديد.

أذكر في مرة حدث خلاف لعدم وجود ملح للبطاطس المقلية. ومرة دون سبب مادي حقيقي يُحكى، حدث خلاف لأن القلوب تَنضح، والعيون تَفضح، والتربة بور، والمياه المالحة لا تَروي ظمأ. ومع ذلك كنا نُصر باستماتة، أن المحاولة التالية تكون في البحر الميت بأبي قير.

تذكرت في حديثه أنني مر عليّ شيء مشابه، أكثر شاعرية وأقل حدة، حينما قطع أسعد حبل الطائرة في شاطئ «أبو هيف».

شكّلَ الصمت بُعدًا آخر لتلك العلاقة المعقدة، لم يره أحد غيري، فقَدْ حَوَّلها لعلاقة مُلهمة، شكّلت وعيًا آخر بداخلي، رسمت لي طُرقًا جديدةً لم أكن لأصل إليها، وفتحت لي أبوابًا في حوائط خرسانية، مدارك عن نفس دسمة وغويطة، ممتلئة بالحكايات الاجتماعية، والتحليلات النفسية، والرؤى المختلفة للوجود.

لم يكسر الصمت بيننا سوى سقوطه في نوبة أخرى من المرض، ولم يتمكن من إخفاء حالته الصحية عني، فتبين من الكشف والفحوصات وهن عضلة القلب، وعدم قدرتها على العمل بكفاءة عالية، مع توصية مُلحّة لإجراء عملية جراحية في القلب كمحاولة لترقيع الوضع، في تأكيد أن القلب لن يعود لسابق عهده مطلقًا.

نُسِب المرض إلى التدخين الشرِه، فقد علمتُ حينها أنه يحرق في جسده ستين سيجارة يوميًّا، بالإضافة إلى المبالغة في شرب الشاي والقهوة، وعِظَم المجهود المبذول في العمل. لكن أبي نسب مرضه إلى الخذلان. لم يعاتب الله، وتقبل مرضه كمَسيحِه الخاص، الذي سيشفع له كل خطاياه.

أخذنا دورنا في إجراء الجراحة على نفقة الدولة، بعدما تنصل كل إخوته من المساعدة، وكان ذلك التنصل هو حيرتي الأولى، فهل كانت مساعدتهم له اختيارية، كشيء إضافي يمكن القيام به لزيادة جبل الحسنات كالسنن والنوافل، أم شيء إجباري، فرض عدم القيام به يزيد من جبل السيئات، وينقص من الحسنات؟ كان الاستفهام بهذا المنطق المبنيّ على تراكم أعداد من حبّات الرمل لتشكّل الجبل، كتراكم الأموال في حسابات البنوك، لأننا عائلة تعرف ربنا، وهذا هو منطقهم في تلك المعرفة.

جاء دورنا بعد شهور، وتمت الجراحة كتحصيل حاصل، بعدما تدهورت الحالة وتبين أنها ميئوس من شفائها.

حاول خلال تلك الفترة، التخفف من الانتظار المُرّ، والتمتع بتشفع المرض له، تارة بالهزيمة وتارة بالانتصار، فقد أجبر إخوته على الموافقة على بيع الدكان لسداد الديون. اعتبر تلك الانفراجة النفسية انتصارًا، وإن كان مغلفًا بهزيمة وفشل ممتد. ورأى نجاحي في أربع سنوات بالكلية فخرًا وانتصارًا حقيقيًّا، كما أنني أكدتُ له أنه حجر أساس في تحديد مسار ذلك النجاح.

تمت الجراحة في ٢٥ يناير ٢٠١٧، شعرت يومها، وكأنني أسلمه إلى الموت، كانت الجراحة صعبة وطويلة، دامت أكثر من ثماني ساعات، يخرجون قلبه من جسده، بعد نشر عظام الصدر، يستبدلون الصمامات بأخرى صناعية، ثم يعود القلب إلى مسكنه، وتُلحم العظام لصورتها الأولى.

فاق الألـم الـذي تبع الجراحة حد المعقول، ولم تعُد المسكنات الموجودة في المستشفى تُخدّر ألمه، ربما بسبب كثرة التدخين، الذي لم يقلع عنه حتى موته، ولم يعد ممكنًا صرف أدوية جدول المخدرات، فاضطررتُ، عملًا بنصيحة الطبيب المعالج، أن أبتاع له برشامًا مخدرًا؛ تامول وترامادول، من ديلرات في الشوارع، في محاولة للحد من الألم الذي كان ينخر في جسده.

استمر بنا الحال لأكثر من أربعة أشهر نحاول التخلص من آثار تلك العملية، فلم يعد بإمكانه تحريك جسده بسهولة، أو النوم، دائمًا عظام صدره تؤلمه، وتعيق حركته. وظلام الموت وصمته يتبصّرانه في النهاية.

بعدما واجه المرض بعنف وشراسة، ظل يقاوم الموت بصدرٍ عارٍ، وبعلمٍ مسبق أنه لا مفر منه، لكنه ظل ينتظر ويتشفع بالألم. فلماذا ينتظر؟ ولماذا يقاوم؟ هل يُعدُّ أبي، مثل مرضه، مسيحًا خاصًّا؟

اعتقد أنه لم يكُن الوحيد، فربما لكل عصرٍ مسيحه، وربما لكل شخصٍ مسيحه الخاص، الذي يجلس إلى جوار قدَره بماضيه ومستقبله، فيتشفّع لخطاياه، ويخلصه من ذنوبه، ويُنير له مستقبلًا جديدًا.

بدا وكأنه في خلوة مع القدَر أقر له برغبته في الانتظار، فاحترم الموت رغبته، وأظهر وجه المودة، لتتوارى خلفه الندية بين أبي والموت.

لم يقدر الموت على نقض تلك الهدنة، فتشكلت صداقة ثم صارت محبة، إلى أن طلب أبي بتعجيل النهاية، وكأنه قد اكتفى. لم يقدر الموت، فسلّم أبي نفسه إلى النوم حتى لا تستعصي مهمة الموت، ورغم ذلك شعر به حين أتى، فقام من نومه، واستأنف دعاءه، وقام الموت بمهمته بخفة كي لا يتعب روحه، فبللت رأس أبي دموع الموت وهو يصاحب روحه ويغادر.

رأى أبي كل شيء، وتخللت الابتسامة تجاعيد صفحة وجهه، وقُبض علي يديّ بيده الخشنة الصلبة، التي شققها الزمن، وسلم بنهاية المعركة بينه وبين المرض. هذا كافٍ للتشفع، والباقي لك يا بني. المرض لم يهزمه والموت لم يقبله بيسر، هو مَن سلم نفسه، مكتفيًا بهذا القدر من المقاومة، وقد كان بداخله حنين إلى ذلك الصمت الأبدي، والمكوث بجانب الله. لمعت عينا الموت بالدموع، هكذا هو الموت، رحيمٌ بكل مسيح، وكل رسول، وكل مَن حمل الألم والمعاناة، وكل مَن لم يكُف طيلة عمره عن مناجاة القدَر مرة متوسلًا وأخرى معاتبًا، كان العشم بينه وبين القدَر يصل إلى حد السماء.

أما أنا فقد خُضتُ الطريق إلى نهايته، وحينها وقفت لأتسلم ختم النجاح، لأقف على حافة طريق يتسم بالاستقرار، أرى خلاله أن كل شيءٍ في أحسن حال، لم يعُد ينقصني سوى روح أبي، التي تُنير

المستقبل، فقد تسلّمت النجاح بيدي اليسرى، وسلمتُ أبي بيمناي إلى الموت.

والآن أكمل ما بدأه أبي؛ أقاوم الموت، لا المرض، لم أصل لتلك المودة مع الموت، سلمتُ لأمره، لكني تأزمتُ وحزنتُ وتألمتُ كثيرًا لفراق أبي، فقاومتُ الموت بالكتابة، كلما كتبتُ استشعرتُ بقرب أبي مني في تلك اللحظة. الكتابة فعل مقاومة، وأنا أكتب لأقاوم موته ورغبة الانتقام، وليستمر وجوده.

الفصل السادس

حنينٌ من نوعٍ آخر

مساء الاثنين السادس من نوفمبر ٢٠١٧ سلّم أبي روحه للموت.

استشعرتُ بجرأة تدب في جسدي وبوحشية تتضخم بداخلي، وتذكرتُ ما قاله صديق لي: «هتفضل حاسس إنك عيل لحد ما أبوك يموت، وقتها بس هتحس إنك كبرت».

اعتدتُ توالي الأيام، واحتدّ بداخلي الشعور بالوحدة، وعُدتُ أسترجع علاقاتي الممزقة التي ضحيتُ بها بعدما كانت المخدر الوحيد، بجانب أبي، الذي أشعل فقدانه شرارة الغضب، وظهرتْ الأمور في صورتها الحقيقية، ولم يعد هناك مبرر للتخفي أو التملق والتجمّل.

كنتُ أظنني على مشارف سنة جديدة، تتبسم بوجه مشرق، أبعد ما تكون عن القلق الوجودي، والبحث الدائم عن شيءٍ في اللاشيء، فالموت آتٍ رغم كل شيء، كما أنه لم يعد يخيف، وما بعده لم يعد يقلق، والحياة لا تتسارع في وجهي، والفضل في ذلك يعود أولًا وأخيرًا إلى روح أبي.

ما زلت أملك حنينًا. حنين من نوع آخر إلى كل ما كان يحن له أبي: إلى بيتنا القديم، والقعدة في البلكونة، وشرب الشاي، إلى الدكان، بكربه ومشاكله، إلى صوره وأوراقه الخاصة، إلى الكويت،

إلى خاتمه بفصه الأسود، إلى قبره، وإلى أي رابط مادي بيني وبينه، بعدما لم يبقَ لي سوى الحنين للذكريات.

بعد وفاته بأسبوع اتصل بي أحد أصدقائي ليخبرني بميعاد مقابلة عمل جديد، كان العمل الأول لي كمهندس مدني، في إحدى شركات المقاولات العامة. جرَت المقابلة بتوتر، ولم أستطع تفادي الحديث عن موت أبي، فقد بدا من وجهي أنني كنت في مقابلة قريبة مع الموت.

تم قبولي، فجريتُ إلى قبر أبي لأخبره وأفرحه باستلام عملي الأول بداية السنة الجديدة.

بدأت العمل المؤسسي بمفهومه الرأسمالي في بداية ٢٠١٨، وقد كان عملي من قبل في عدة أشغال سببًا أساسيًّا لقبولي في الشركة. رأيتُ حينها العمل بهدفه المقدس؛ الأول والأخير، تقليل النفقات وزيادة الأرباح، والعمل في نظام هرمي، يترأسه مالك رأس المال، الذي يتبع نظامًا محددًا ومُعلنًا في الترقي. وقد سمحت لي درجتي التعليمية بالانضمام إلى منتصف ذلك الهرم، حيث ترأستُ هرمًا صغيرًا من الفنيين، بينما كنت في قاعدة الهرم الهندسي ـ الإداري.

وفّر لي العمل الكثير من المكاسب، وكان ذلك جزءًا من تقبُّل أنماط جديدة للحياة، بعد أن تسيد في فكري تصوّر أننا مجرد تروس في ماكينة الرأسمالية الطاحنة، وكان ذلك نابعًا من منظور فردي إلى الحياة، حيث إن الإنسان إما أن ينطلق من ذاته إلى المجتمع أو العكس، ومع كُفري بالوعي الجمعي باعتباره محركًا رئيسيًّا،

وبتأويلي الشخصي لما يدور حولي، وبعيدًا عن الشد والجذب بين طرفَي الخناق، الإنسان العامل، والمنظومة الرأسمالية، وإن كان الأصح أننا لسنا طرفَين، فالمنظومة طرف واحد قوي يتحكم في كل شيء، هي التي تفرض شروط التعاقد بينك وبينها، ولا يُسمح لك بالتفاوض إلا في أضيق الحدود. ومنذ يومك الأول بداخلها يتم زرع فكرة في عقلك وعقول الجميع، مهما كانت قدراتك فذة وكفاءتك عالية، تأكد أنك قابل للاستبدال.

كان من الصعب عليّ تحديد المكاسب والخسائر، وإن كان التضحية بتسع أو عشر ساعات يوميًّا لمدة خمسة أو ستة أيام أسبوعيًّا هو شرٌّ محضٌ، لكنه كان بالنسبة لي يُمثل انفراجة بعدما كنت أضحي بيومي بأكمله من السابعة صباحًا إلى منتصف الليل.

كان لتلك الانفراجة أثرٌ حاسمٌ في عدم الجزم برأي واحد، وتفنيد المعطيات في محاولة الوصول إلى نتائج تضيف إلى الحياة بُعدًا آخر، أعقد من تلك الحلول السهلة، بمع أو ضد، وقد كانت تلك المنطقة الرمادية التي اتسعت تدريجيًّا طوال ما يقرُب من عشر سنوات هي ما يمكن اعتباره المكسب الحقيقي المُضاف من العمل إلى الحياة.

كنت أتعلم، وأزداد خبرة، وأترقى في العمل، وأذهب إليه لأحكي له، أو أحكي لصوره في غرفة نومه، بينما أتدفأ من برد الشتاء ببطانيته التي صاحبته من الكويت إلى العراق ثم إلى مصر.

كنت أنجح وأحكي له، وأتذكر حديثه حين قال لي، بعد نجاحي في البكالوريوس: «أنا ماعرفتش أحب المذاكرة، ولا أكون شاطر

زيك»، فأوقفه بمسحة مودة: «لكن إنت كنت شاطر في الحياة»، فيختمها ببرقية تعيسة مختصرة: «أنا عمري ما كنت شاطر في الحياة، الحياة بالنسبة لي كانت سلسلة فشل متواصل». لم أتمكن حينها من إيقافه مرة أخرى، لنعيد تعريف الأشياء بمسمياتها الأولى، معنى الفشل والنجاح، والعلاقة بين أرصدة حسابات البنوك وقيمة الحياة، وأمور عديدة أخرى لم نتمكن من حسمها، كنت آمِلا في تكرار جلسة الحكي مرات ومرات، لكنه رحل، تاركًا لي مسئولية إعادة ترتيب أوراق العمر لاستخراج معانٍ جديدة.

استمر بي الحال حتى انتقلت إلى العمل بهيئة الطرق والمواصلات، فبدأ السفر يمنعني لأشهر من العودة إلى الإسكندرية، وزيارة أبي. حتى أُجبرت على البقاء لشهر كامل حينما استدعتني النيابة للتحقيق في قضية ذبح أسعد. فبعدما توسط لي اللواء المسئول عن الإشراف عليّ، للسفر بعد تحقيق المباحث، اضطررت للعودة بعد تحويل القضية إلى النيابة.

سألني وكيل النيابة عما أعرفه عن إبراهيم وأسعد، فارتبكتُ.

فقد كان موت أسعد وذبحه بالأخص شيئًا مُحببًا بالنسبة لي، لم أقدر على الهرب من ذلك الشعور، لكنه تبدل من أن يكون حدثًا جللًا في حياتي، إلى مجرد دافع للبحث والوصول لقيمة ومعنى لتلك الحياة الضالة، كما لم يكن ذبح أسعد وحده هو ما تحوّل إلى أمر طبيعي بحكم تتابع الأحداث، بل صار بعده الموت بالكلية وكذلك القتل أيضا، لم يعد لهما تلك الرهبة أو الهيبة، فالنهاية آتية ولا مفر منها.

كنتُ أود أن أحكي له عما اكتشفته في أيامي الماضية، عن العلاقة الممتدة بيني وبين أبي، وبيننا وبين البيت منذ أكثر من سبعين سنة، مر أغلبها عجافًا علينا جميعا، لو كان يرغب في السماع لحكيت له عن البحر والصيد والرمال، والطائرة الورقية التي سهرنا لصناعتها طوال الليل ثم أضاعها أسعد في لحظة طائشة، كنت سأحكي له عن سحر وذلك العالم الغاشم الذي أُقحمت فيه فقط لأني عشتُ بلا أم وبلا أب، وعن علاقاتي المبتورة التي لم أُجِد حَبْك لُحمتها، وعن صدام والأموال المنهوبة، وسرقة الدكان، ومُدرسي الأزهر، وعن كل المحاولات المبتسرة التي ضاعت في سبيل البحث، البحث عن ماذا؟ عن الأم؟ عن الأب؟ أم عن دفء العائلة؟ بل عن أي شيءٍ يوقف هدر السنوات في مجاري الحياة الطافحة.

خفت من كثرة الحكي كي لا يثير حولي شكوكًا، فارتكنتُ إلى العزيز الغالي؛ الصمت.

لم أزِدْ في الرد، فأكدت له أنني لا أعلم أكثر مما يعرفه الجميع، ومما وصلوا إليه من معلومات، عن سمعة كل منهما السيئة، حيث سُجِنَ أسعد في قضية اتّجار بالمخدرات منذ ما يقرب من عشر سنوات، بينما إبراهيم سُجِنَ بعد الثورة لمدة ثلاث سنوات في قضية حيازة سلاح بدون ترخيص. كما أنني منذ أكثر من سنة حينما مات أبي لم أعرف عنهم شيئًا عملًا بوصيته، وبعد عملي بهيئة النقل وكثرة السفر انقطعتْ عني كل الأخبار.

استمر احتجاز إبراهيم، وظل الجميع تحت رهن التحقيق، وحينما ادعى أنه كان يقضي سهرته مع بعض أصدقائه، ظن الجميع

أن القضية ستُحفظ ضد مجهول، لكن ثبتَ كذب ذلك الادعاء، الذي أصبح وشهود الزور الدليل الوحيد ضده، فلم يتم العثور على سلاح الجريمة، ولم يره أحد في البيت أو الشارع ذلك المساء. لكن سُمعته السيئة، وسابقة السجن، كانا كافيَيْن لإغلاق القضية، وتستيف أوراقها، ثم تم تحويلها لمحكمة الجنايات، وجاء الحكم عليه بالسجن المؤبد.

تم إزالة الشقة محل النزاع، وتم تغريم اتحاد مُلاك البيت، بمبلغ خمسين ألف جنيه، حيث لم نقُم بتركيب كاميرات المراقبة، طبقا للتعليمات الصادرة عام ٢٠١٤ في إطار خطة الدولة لمكافحة الإرهاب، ومراقبة المواطنين والجرائم.

بعد الحكم على إبراهيم، سُمِحَ لنا بممارسة حياتنا الطبيعية، فجهزت شنطة سفري، وكدستها بالملابس، عازمًا على عدم العودة لذلك البيت حتى أتمكن من بيع شقتي.

وبينما أُغادر البيت كان هناك فني كاميرات، يقوم بتركيب واحدة عند مدخل العمارة، وأخرى عند باب الشارع، وبدا أن الجريمة كانت سببًا لموجة من الحزم والمراقبة في أقسام البوليس، فحينما وصلت إلى محطة السكة الحديد، منتظرًا وصول القطار، وجدت عددًا من فنيي الكاميرات يقومون باستبدال القديمة التالفة بأخرى سليمة، ثم جاء صوت المذيع الداخلي، يشير إلى أن القطار سيدخل المحطة خلال خمس دقائق، فمشيت على الرصيف لأستعجل ركوب القطار قبل أن تلتقطني عدسة الكاميرا.

تمّت

شُكر وعرفان

إلى الأساتذة والأحباء:
د/ صلاح الجبيلي، محمود القاضي، نائل الطوخي، أحمد الفخراني، محمد الكاتب، أحمد عيسى، مريم ممدوح.
على الوقت والملاحظات المقدمة لإتمام الرواية.